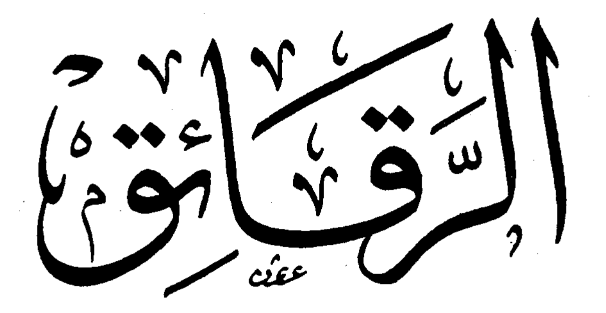
إحياء فقه الدعوة

محمد أحمد الراشد

الرقائق

الكتاب الثالث

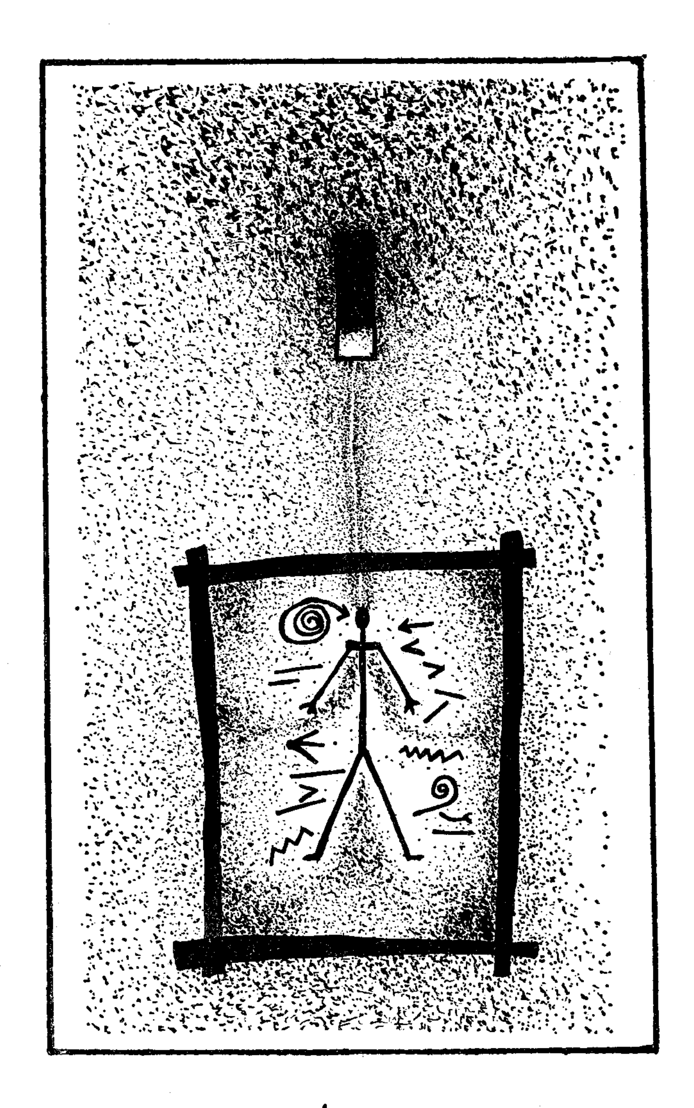
مؤسسة الرسالة



محمد أحمد الراشد

« اعتذار »

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ناقصة غير كاملة ، عن غير قصد ، مما يوجب علينا الاعتذار ، مع تعجيل الاستدراك بوضع هذه الطبعة التامة بين أيادي القراء الكرام ، آملين حسن ظنهم بنا ، والتأول لنا ، شاكرين لهم ما يبدونه من مؤازرة وتشجيع لنا .



حصار الأمل

لوحة من الفن التجريدي الاسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثامنة
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدمة ـــــــ النفس المؤمنة

انتقاء وتجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب ، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة : ركنان أساسيان في خطة الحركة الاسلامية .

وانه ـ كما يقول أبو الحسن الندوي ـ: (لا بد من انتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة ويديرون دفتها ، ويربون الرجال ، ويملأون كل فراغ . وكل حركة او دعوة او مؤسسة مهما كانت قوية او غنية في الرجال فانها معرضة للخطر ، وانها لا تلبث ان ينقرض رجالها واحداً اثر آخر ، وتفلس في يوم من الايام في الرجال) [1] .

---

(١) مذكرات سائح في العالم العربي ٧٩ .

● على الحركة الاسلامية ان تتفرس في نفسها

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جزاف ، فان اخص خصائصها انها تلبي نداء الحاجات المرحلية ، وتعالج الواقع . وفي كل أدب أرشد اليه الاسلام خير ، ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة ، فوجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير ، والبدء بما هو افضل ، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص .

ذلكم هو الذي يوجِب من بعدُ أن تتفرس الحركة الاسلامية الحاضرة في نفسها فراسة خبرة ، في خلوة تأمل ، فتحدد نقصها ، وتحصي رصيدها ، ليأذن الله ان تصدق فراستها الاخرى في الناس ، وتحكم طريقها في هذا التصارع العنيف ، كما قال الزاهد الحكيم سمنون — رحمه الله — حين سئل عن الفراسة وحقيقتها ، فأجاب :

(ان من تفرّس في نفسه فعرفها : صحت له الفراسة في غيره وأحكمها) [١] .

وانه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة ، ويخولنا اياه ، لنتخذه منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها انفسنا ونحدد نقصنا ، ثم تحويل الفراسة إلى دراسة نسلكها ينابيع في صفوف الدعاة باذن الله ، فيخرج بها

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٩/٢٣٦ .

وعاة ، يصدقون بالصدق الذي جاءهم عن ربهم ، ويحفظون أمــــره .

ولقد شهد التاريخ القريب لاجزاء الحركة بعداً عن الموازنة في اساليب التكوين والتربية ، وطغياناً في جوانب على جوانب اخرى ، فترى في منطقة غلبة الجانب التعبدي وتزكية النفس ، وفي اخرى ترفاً فكرياً ، وفي ثالثة ولعاً بالمشاركة في احداث السياسة اليومية، فاختلفت الصياغات .

ومن حيثيات كثيرة يعرفها اهل المعاناة : بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون ، المستدرِك النقص ، وتحدّدت ملامحه في غرس معاني :

* الحرص على الصلاة وتثبيت العقيدة .
* والالتزام بأدب الاخوة .
* والفرح بالبذل والتعب اليومي .
* والشوق إلى الجهاد والاستشهاد ، من دون تهور .
* والانضباط بالطاعة .
* والتقلل من الدنيا وطلب الخِفّة .
* وترقب الموت ونسيان الأمل الدنيوي .

حب الله تعالى ، في رجاء يضبطه خوف .

* ومفاصلة الذين كفروا ، والذين نافقوا .
* والصبر على المحن .

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح ان يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الاسلامية .

وهذه الفصول مخصصة لبيان بعض هذه المعاني والتذكير بها ، من خلال مواعظ ترقق القلب ، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح ، وتؤنسها اذ هي ماضية فيه ، فان مَدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التقوى والفجور ، ان صلحت : كان لها ظل وارف يهب الأمن لصاحبها ، ومُتّسِعاً للآخرين ، في امتداد بمقدار هذا الصلاح . وإن فسدت : كان ثَمّ اضطراب ، وجحيم من القلق .

فمن أجل التنبيه على جمال النفس المؤمنة والحث على الاقتداء بِسَمْتِها : جاء هذا الكتاب .

ويعجبني جداً وصف الشاعر التونسي احمد المختار الوزير للنفس البريئة ، ورمز لها رمزاً ، جعلها كأنها فراشة ، واقترب كل الاقتراب من ادراك كمال الحقيقة ، تسوقه فطرته ، إلا انه لم يمسكها ، وفاتَه انه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره ...

انها تأسره اذ هي :

ساكنة ، في صَمتها ، أبيَنُ ممّن يَنْطقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية : وداعة ، وتفكّر ، وتأمل

هادىء ، في إقلال من الكلام ، وبعد عن اللغو ، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة ، وجَمال بليغ مفصح .

وإن وَنَتْ وَقفَتُها : أعجَلَها المنطلقُ

فالوقفات سُنة من سنن الحياة ، وقدر مقدور على البشر ، إلا انها عند المؤمن لن تكون استرخاءً وغفلةً وتمادياً ابداً ، بل هي تعتري برهة ، ثم تُجليها محفِّزات كامنة ، من رصيد ذاتي مجموع او تراث حكمة مركوز .

لكن الشياطين تعترض ، تحاول عرقلة هذا المنطلق ، توهم صاحبه ، وتضع العوائق الثقال في صور من الزينة ، لها بهرج ، وتألّق ، وبريق ، تغش النفس الهائمة ، ولكن النفس الملهَمة ، التي أُلهمت إيمانها ، ترى ما وراء ذلك من حقائق تفضح ما خفي من كبرياء مفتعلة ، او حسد موسوِس ، او صدارة متأخرة ، أو حب زيادة مال زائل .

فذلك هو حوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة .

او هي تجربة النفس المؤمنة ...

لكَم رأت خيالَها ، ماجَ به المنبثَقُ
كأنه النجمُ يرفُّ ، والمياه الأفقُ
فحوّمَتْ ، ترنو ، تَودّ لو به تَعتَلِقُ
وأوشكتْ ، لو لم تُفِق ، يقضي عليها الغرَقُ

لكنها مؤمنةٌ ، هيهات ، لا تستحمِقُ
بين الضلال والهدى : يبدو لها المفتَرَقُ

نعم ، هكذا : المفترق واضح ، والاقتراب يفضح الصورة ، ويزيد الوضوح وضوحاً ، ويبين أنّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعدٍ إنْ هو إلا اهتزاز .

ولكن كيف النجاة مع هذا الاقتراب من موجة عالية تَفجأ ، فتترك بَلَلاً يُثقِل ، ان لم يكن الغرق المتلف ؟

من هنا وجبت الموعظة ، وانبغى التحذير ، في كلام كمثل هذه الرقائق ، كي لا تهبط النفس المؤمنة ، اذ آمنت ، بشيء من رذاذ الاقتراب ، بل حياتها في السمو ، ونجاتها في العلو .

انها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر ، وأهداها الناشئة ، لكنها حكمة المنتهين .

وليس ذلك بمستغربٍ في عرف الحكمة الاسلامية ، فانها أبدية الصواب ، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة وتخلّف ، لكنها كما تصلح انتهاء : كانت تصلح توسطاً ، وصلحت ابتداء ، مع بدء الحياة البشرية ، وآية ذلك ان التوحيد أُوحي إلى آدم عليه السلام ، بدءَ الحياة ، وكان نبياً ، وأُلهمت التقوى إلى هابيل ، فكفَّ يدَه .

فانظر إشراقة القلب ولطف الاحساس في هذا الرمز

المفصح عن طبائع النفس الزكية ، وانظر بمقابله غلظ حجاب قلب شاعر ملحد يدعو إلى البهيمية ...

إنما العيشُ في بهيمية اللذة لا ما يقوله الفلسفي
حكمُ كأس المنونِ أن يتساوى
في حساها الغبي والألمعـــــي
ويصير الغبي تحت ثـــرى الأر
ض كما صار تحتهـــا اللوذعي
فسل الارضَ عنهمـــا إن أزا
لَ الشكَّ والشبهةَ السؤالُ الخفي

وواضح هنا ان هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقة هي قول الفلسفي ، لا قول الواعظ المسلم ، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامه بالمروق عن الدين .

قال ابو حيان التوحيدي : سمع ابو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الابيات فقال :

(هذا النمط مفسدة للشباب الاغرار ، الذين ليست لهم بصيرة في الأمور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء ، وقائل هذا قد عاند الدين ، وخلع رِبقة الحياء ، وافصح عن الفساد ، وصَدَّ عن الحكمة ، وقدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول الخفيفة .

يا مسكين : أَمِن أجل ان الصالح والطالح والعالم

والجاهل صاروا تحت التراب : يتساوون في العاقبة ؟

أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد ، فلما بلغوا المقصد : نزل كل واحد في مكان كان معداً له ، وتُلقي بغير ما يُلقى به صاحبه ؟

أما دخل قوم داراً فأُجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء وهذا بشيء آخر ؟

ثم تقول : سل الارض عنهما !!

قد سألنا وخبّرتنا : انها ضمت اجسادهم وجثثهم وأبدانهم ، لا كفرهم وايمانهم ، ولا أنسابهم وأحسابهم ، ولا حكمتهم وسفههم ، ولا طاعتهم ومعصيتهم ، ولا اقوالهم وافعالهم ، ولا يقينهم وشكهم ، ولا زهادتهم وتسبيحهم ، ولا معرفتهم وتوحيدهم ، ولا خيرهم وشرهم ، ولا جورهم وعدلهم) .

وفي مثل هاتين القطعتين من الشعر ، وفي التعقيب الذي عليهما ، تتضح بعض جوانب المعركة الدائمة بين الايمان وصور الضلال .

وفي مثل هذا الكتاب مواعظ ، وإخبات ، وزيادة يقين ....

١ —— تسبيح يَشدّ الملك

دعوة تريد أن تستقيم إلى الله .

فعليها ان تدلف من باب الاستقامة اذن . وبابها المحراب .

وهكذا ، فان على الدعوة الاسلامية في كل وقت ان تبدأ عملها من المسجد ، فتصلح العقيدة ، وتعلم دعاتها أدب التعامل الاسلامي ، وبذلك تسقط تلقائياً كل المقاييس الاخرى في التفاضل ، من جودة الكتابة ، وبلاغة اللسان ، وبهرج الشهادات الجامعية .

وانما جماع الخير في ارتياد المسجد ، وذخيرة المسجد نعم زاد الانطلاق . ولقد احصاها الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما فقال :

(من أدام الاختلاف إلى المسجد اصاب ثماني خصال :

آية محكمة

وأخاً مستفاداً

وعلماً مستطرفاً .

ورحمة منتظرة

وكلمة تدله على هدى ، او تردعه عن ردى . وترك الذنوب حياء ، او خشية) [1]

(فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرؤوس ، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل . وكما يشق النهر فتقف الارض عند شاطئيه لا تتقدم ، يقام المسجد فتقف الارض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله) [2] .

(فما المسجد بناء ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب ، فان الحياة اسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، اذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب

---

(١) عيون الاخبار لا بن قتيبة ٣/٣ .

(٢) للرافعي في وحي القلم ٣٥٨/١ – ٣٥٧ .

وروحانية النفس ، ولا تدخله انسانية الانسان الا طاهرة متزهة مسبغة على حدود جسمها من اعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء ، كأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن اعضائه قبل دخول المسجد) [١] .

ولقد تفاعل الموفقون مع هذه الاعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم ، فولعوا بها ، وشدوا اليها شداً أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم :

يمشون نحو بيوت الله اذ سمعوا
(الله أكبر) في شوق وفي جذل
أرواحهم خشعت لله في ادب
قلوبهم من جلال الله في وجل
نجواهم : ربنا جئناك طائعة
نفوسنا ، وعصينا خادع الأمل
اذا سجى الليل قاموه وأعينهم
من خشية الله مثل الجائد الهطل
هم الرجال فلا يلهيهم لعب
عن الصلاة ، ولا اكذوبة الكسل[٢]

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك ، ابتداء بالصدر الاول ، كمثل عبدالله بن المبارك حين يقول :

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) ليلسين خليل في مجلة (التربية الاسلامية) العراقية ٥/٦٠٠ .

اغتنم ركعتين زلفـــى إلى اللـ
ـه اذا كنت فارغاً مستريحا
وإذا هممت بالنطــق بالبـــا
طل فاجعل مكانه تسبيحا [1]

وانتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن ، كمثل الامام البنا حين يوصي ان :

(ايها الاخ العزيز :

أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشيّ ، ولحظة في السحر ، تستطيع ان تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة . وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع ان تملأ فيها يديك وقلبك وروحك بالفيض الهاطل من رحمة الله على عباده ، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك اليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين ، واغتنم الوقت ، فالوقت كالسيف ، ودع التسويف فلا أضر منه) [2] .

وكمثل الامام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك ويقول :

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ١/٢٨٦ .
(٢) مجلة (الدعوة) في دورتها الاولى عدد ٨ سنة ١٩٥١ .

(رُكِّبْتَ من القصور والفقر والعجز والاحتياج ، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه ، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته ، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه ، ومن تنوع احتياجك إلى انواع نعمه وإحسانه .

فغاية فطرتك هي العبودية .

والعبودية ان تعلن عند باب رحمته قصورك بـ (استغفر الله) و (سبحان الله) .

وفقرك بـ (حسبنا الله) وبـ (الحمد لله) ، وبالسؤال .

وعجزك بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) وبـ (الله اكبر) ، وباستمداد .

فَتُظْهِر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته)[1]

وكمثل الامام المودودي — رحمه الله — حين يتحدث عن بعث الرسل عليهم السلام لتحقيق غاية العبودية في الارض ويقول :

(انظروا قليلاً في ما تحرّى النبي صلى الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ، فقد قام بدعوة الناس — اولاً وقبل كل شيء — إلى الايمان ، واحكمه في

---

(١) المثنوي العربي لبديع الزمان نورسي ٢٨٣ .

قلوبهم ، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الايمان تدرجاً بالطاعة العملية — اي الاسلام — والطهارة الخلقية — اي التقوى — وحب الله والولاء له — اي الاحسان . ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما اصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوته من كل وجهة — بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم — مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي ، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الاوفياء ان ينصرفوا اليه اذن ، وبعد كل ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس ، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة . وكأنني به فتن الذهب ونقاه من الاوساخ والاقذار اولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين اولاً ، ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما) [1] .

---

(١) الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية ٧٢ .

● أجب نبيك صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطوتاه احداهما تحط خطيئة ، والاخرى ترفع درجة) [١]

وقال :

(من غدا إلى المسجد وراح اعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح) [٢] .

وقال :

(أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الامام اعظم اجراً من الذي يصلي ثم ينام) [٣] .

وعن جرير رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة) [٤] .

وسأله ابن مسعود : اي العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها) [٥] .

---

(١) صحيح مسلم ١٣١/٢ .
(٢) و (٣) صحيح البخاري ١٥٧/١ – ١٥٩ .
(٤) و (٥) صحيح البخاري ايضاً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة ، وكذلك الدهر كله)[1]

وكانت آخر ابتسامة للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا : ابتسامته للصلاة ، وذلك لما كشف ستّر الحجرة يوم الاثنين فرأى ابا بكر يؤمّ الصفوف .

وحث على صلاة الفجر وصلاة العشاء فقال :

(من صلى البردين دخل الجنة)[2] .

وقال – وقد نظر إلى البدر – :

(انكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا .

ثم قرأ : «وسبح بحمد ربلك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»)[3]

وقال :

(الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتِرَ أهله وماله) .

---

(١) صحيح مسلم ١/١٤٢ .

(٢) و (٣) صحيح البخاري ١/ ١٣٧ .

اي فقدهما ، وفي لفظ : (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)[1] .

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي صلى الله عليه وسلم فيه حبوط العمل وترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة ورؤية الله فيها ، فأجب ، وانه لثمن يغري ويطمع ، ويحرص عليه ، قبل الكساد ، وكن عند حسن ظن الفضيل ابن عياض فانه تحدى وقال : (ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة ، ثم لا ترى لها عاشقاً) ، عاشقاً يخرج من أجلها في البردين ، وقل له : اني انا العاشق .

فان وجدت من نفسك ثقلاً وتكاسلاً فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك ان تخاطب بها نفسك فتقول : هب انك من العسكريين ، او من عمال المخابز ، او الصيادين ، او ... ، أما كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف والطالب طاعة للنظام العسكري أو تنافساً في طلب الرزق ؟ فالله سبحانه أحق أن يطاع ، وصلاة الفجر أحق أن ينافس فيها . فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها ان شاء الله ان تراخت واستأنست بالنوم .

واذا ألممت بذنب او خطأ فاستدرك بالركوع ، فان داود عليه السلام لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه واستدرك ووصف الله تعالى انتباهته فقال : (وظن داود

---

(١) صحيح البخاري ١٣٧/١ .

أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخرّ راكعاً ، وأناب ، فغفرنا له ذلك) [1] . فجعل الاستغفار والركوع طريقه ، يعلم بذلك الدعاة ان يركعوا .

● حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء ، إلا في الصلاة ، فقد قيل للاحنف بن قيس رضي الله عنه : (ان فيك أناة شديدة) فقال : (قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي اذا حضرت حتّى اصليها) [2] .

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له : (الصَفّي)، لانه كان يلزم الصف الاول في مسجد البصرة خمسين سنة [3] .

ومثله : ابراهيم بن ميمون المروزي ، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن ابي رباح ، وكانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة . قالوا : (كان فقيهاً فاضلاً ، من الامّارين بالمعروف . وقال ابن معين : كان اذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها) [4] .

---

(١) سورة ص آية ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ٩٦/٧ .

(٣) و (٤) تهذيب التهذيب ١٧٣/١ – ٤٤٧ ، ٤٢٤/٨ .

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط وقد أمّ اهل حمص ستين سنة كاملة ، فقال : (ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله) [1] .

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي ، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني : (لم أصلّ الفريضة قط منفرداً إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما قط) [2] ، مع أنه قارب التسعين .

والداعية السعيد من يتأمل هذا ويقتدي .

● دعوة تتعلم من داود

وكان داود عليه السلام يسبح بالعشيّ والاشراق ، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه ، وقال : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) ، فوهبه الله هبة عظمى ذكرها فقال : (وشددنا ملكه) [3] .

ودعوة تدعي أنها اسلامية لا يشد ملكها اليوم وتغلب ما لم يسبح رجالها بالعشي والاشراق .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٣٦٥ .

(٣) سورة ص آية ٢٠ .

وان التواصي بالصلاة لحسنة نقترفها يزيد الله لنا فيها حسناً ، ولا بد لنا ان نجعلها كلمة باقية في عقبنا من اجيال الناشئة الجدد ، فان لم نفعل ، فان عقد الدعوة سينفرط — لا سمح الله — انفراطاً ما له من فواق .

٢ الدّقائق الغالية

سجود المحراب ، واستغفار الاسحار ، ودموع المناجاة : سيماء يحتكرها المؤمنون .

ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار ، والنساء ، والقصر المنيف ، فان :

*** جنة المؤمن في محرابه** [١]

ولقد منّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية ، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح ، تتضاءل بجانبها لذة المباح ، فيهجر الكثير منه حذراً من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه .

---

(١) شطر لوليد في مجلة التربية الاسلامية ٦٣٧/٧

جرب ذلك المؤمنون قديماً ، زمن العيش البسيط ، وجربه المؤمنون اليوم ، زمن المدنية المعقدة .

بل ان الصلاة في يوم هذه المدنية لأظهر في إضفائها السرور ، فبينما يطيل التعقيد على الانسان حياته الحاضرة ، فيسأم ، ويمل ، ويضجر ، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب ، فيعيش في اطمئنان ، وراحة بال ، ولئن كان لنظرية آينشتين في نسبية الوقت نصيب من الصحة ، فان في الصلاة هذا النصيب ، كما يشرحه مصطفى صادق الرافعي ويقول :

(يا لها حكمة ان فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً اما متصلة او مهيأة لتتصل ، ولن يعجز اضعف الناس مع روح الدين ان يملك نفسه انه متوجه بعدها إلى ربه ، فيخاف ان يقف بين يديه مخطئاً او آثماً ، ثم هو اذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر ان بعدها الفريضة الاخرى ، وانها بضع ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير ، كأنه بجملته – مهما طال – عمل بضع ساعات) [1] .

فطول الحياة نسبي .

---

(١) وحي القلم ١/٣٥٩ – ٣٦٤ .

هو طويل جداً ، مخيف مظلم للجاهلي .
وهو قصير ، هين منير للمصلي .
وحياة الجاهلي ركود مستمر .

وحياة المصلي حركة ، تزيد صواباً ، أو تستدرك اعوجاجاً .

وانها (الله اكبر) تنهي هذا الركود ، وتؤسس الحركة .
(الله اكبر) !

بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف :

(ايها المؤمن : ان كنت أصبت في الساعات التي مضت ، فاجتهد للساعات التي تتلو . وان كنت اخطأت فكفّر ، وامح ساعة بساعة) [1] .

واظهر حركة يولدها التكبير : حركة التمييز والفرقان ، بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

فانك ان قلت : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين). استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الاصناف الثلاثة ، وتخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد ، او بلد واحد ، فتجول في ركعات يومك بلاد الاسلام اجمع ،

---

(١) وحي القلم ١/٣٥٩ – ٣٦٤ .

وتستعرض تاريخ الاسلام اجمع .

ففي ركعة تذكر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الاطهار رضي الله عنهم مثلاً لمن انعم الله عليهم ، وتذكر ابا جهل ومسيلمة مثلا للمغضوب عليهم والضالين .

وفي ركعة اخرى تذكر هوداً وصالحاً مثلاً ممن انعم الله عليهم ، عليهم السلام ، وعاداً وثمود من الهالكين .

وفي ركعة اخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين وابن المسيب ممن انعم الله عليهم ، واهل الردة ، والجهم بن صفوان ، والجعد بن درهم من المتخبطين .

وفي اخرى تذكر الامام احمد بن حنبل ورهطه من المحدثين الموفقين ، وبشراً المريسي وابن داود من الظالمين .

وفي اخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين ، واصحاب وحدة الوجود والفناء الموهوم والشطح والابتذاع من المدلسين .

وفي أخرى تذكر الامام البنا وعودة وسيد ، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين .

وبذلك تعقل صلاتك ، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، وتجدد عهدك مع اجيال المؤمنين ، وتنبذ

المفسدين ، وتلك هي حركة الايمان ، فان الايمان الحق ما أخذ منك الولاء ، وتركك على المفاصلة .

● رجال مدرسة الليــل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون .

فمن ثم كانت مدرسة الليل .

وكان ترغيب الله للمؤمنين ان يجددوا سمت الذين (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هــم يستغفرون) .

واذا انتصف الليل ، في القرون الاولى ، كانت اصوات المؤذنين ترتفع تنادي :

يا رجال الليل جــدوا
رب صــوت لا يــرد
مــا يقــوم الليــل إلا
من لــه عــزم وجِــدُّ

وانها حقاً لمدرسة ، فيها وحدها يستطيع رجالها ان يذكوا شعلة حماستهم ، وينشروا النور في الارجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية .

وانها تجربة إقبال يوجزها فيقول :

نائح والليـــل ســـاج ســـادل
يهجـــع الناس ودمعي هاطـــل
تصطلي روحي بحـــزن وألـــم
ورد «يا قيوم» أنسي في الظلم
انا كالشمع دمـــوعي غســـلي
في ظلام الليـــل أذكي شعلي
محفل النـــاس بنوري يشـــرق
أنشر النـــور ونفسي أحرق[1]

وان دعوة الاسلام اليوم لا تعتلي حتّى يذكي دعاتها شعلهم بليل ، ولا تشرق انوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين ما لم تلهج بـ (يا قيوم) .

ما نقول هذا اول مرة ، وانما هي وصية الامام البنا حين خاطب الدعاة فقال :

(دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة)[2] .

أفعيينا ان نعيد السمت الاول ، ام غرنا اجتهاد في التساهل والتسيب والكسل جديد ؟

ان القول لدى الله لا يبدل ، ولكنا ارخصنا الدقائق

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ٧٩ .
(٢) مجلة (الدعوة) في دورتها القديمة عدد ٦٣ .

الغالية بالغفلة ، فثقل المغرم ، ولم يجعل الله لنا من امرنا يسراً .

ان انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور ، بل برجعة نصوح إلى العرف الاول ، ومتى ما صفت القلوب بتوبة ، ووعت هذا الكلام أذن واعية : كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة .

ذلك شرط لا بد منه .

وكأن النصر حجب عنا لاننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنا رافعين اصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بادلال ، نبيعه ونثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همساً في الاسحار ، ولا الدمع المدرار ، وانما النصر هبة محضة ، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئاً ، ويوقع اجرهم عليه .

ان تعلم الاخلاص ، وفضح الامل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل ، كما يقول وليد ، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس .

قال ، والحق ما قال :

يا ليل قيامك مدرسة
فيها القرآن يدرسني
معنى الاخلاص فألزمه
نهجاً بالجنة يجلسني

ويبصرني كيـف الدنيـا
بالامـل الكاذب تغمسـني
مثـل الحربـاء تلونهـا
بالاثم تحـاول تطمسـني
فأباعدهـا وأعـاندهـا
وأراقبهـا تتهجسـني
فأشد القلـب بخالقـه
والذكر الدائم يحرسني [1]

واكثر من هذا ، فان من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الاجيال التي بعده إلى ما شاء الله ، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين اليه ، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم ، شاهده ، وارشدك اليه ، فقال :

(بحسبك ان قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وان قوماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم) .

فلم كان ذلك ان لم يكن ليل الاولين يقظة ، وليل غيرهم نوما ؟ ونهار الأولين جدا ، ونهار الآخرين شهوة ؟

● أتسبقك الحمامة ؟

وانه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد ابي سهل الصعلوكي ، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله :

---

(١) اغاني المعركة ٣٨ .

أنام على سهو وتبكي الحمائم
وليس لها جرم ومني الجرائم
كذبت لعمرو الله لو كنت عاقلا
لما سبقتني بالبكاء الحمائم[1]

فان الذنب لا يغسل إلا بدمع ، والشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف تاريخ الاسلام رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم
بتلاوة ، وتضرع ، وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم
مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبان ، وعند جهادهم
لعدوهم من أشجع الابطال
بوجوههم أثر السجود لربهم
وبها أشعة نوره المتلالي[2]

وسأل عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسراره ، فأبان جوابه عن اصابة المؤمنين والمذنبين في تحريهم إياه ، واستمع لتحاورهما :

قلت لليل : كم بصدرك سر
أنبئني ما أروع الاسرار ؟

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/١٧١ .
(٢) اغاثة اللهفان ٢٥٥ .

قال : ما ضاء في ظلامي سر
كدموع المنيب في الاسحار [1]

أفترى المؤمنين الا مصدق بجواب الليل ، فهو مسارع مستبق ؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في اذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :

فاز من سبح والناس هجوع
يدفن الرغبة ما بين الضلوع
ويغشيه سكون وخشوع
ذاكراً لله والدمع هموع
سوف يغدو ذلك الدمع شموع
لتضيء الدرب يوم المحشر
سجدة لله عند السَحَر [2]

ويلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف في اخرى أن :

عد إلى الله بقلب خاشع
وادعه ليلاً بطرف دامع
يتولاك بعفو واسع

---

(١) ديوان المثاني ٣٥ .

(٢) لوليد ، في مجلة التربية الاسلامية ٧/٦٣٦ .

ويبدل كـــل تلك السيئـــات

حسنات اجرها لن ينفدا

كل هذا العفو للعبد المنيـــب

سابغاً من خالق الكون الرحيب

للذي تاب اليه من قريب[1]

---

(١) لوليد ، في اغاني المعركة ٩٤ .



٣ ـــــــــــــ الابـتــداء

كل ممارس للعمل التربوي الاسلامي الحركي يلحظ ولا بد ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم ، فانت ترى داعية سالكاً مع السالكين ، وتظن انه سيثبت ، ولكنه يخيب ظنك اثناء الطريق ، بأن تصدمه رهبة او رغبة ، أو يستأسر لنداء نفس وهوى ، فيغتر ، ويستولي عليه التيه إدلالاً وامتناناً ، فيصيبه الفتور .

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حيناً ، ولكن تفرّسنا في انفسنا ، والتنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين : بدأ يرينا ملامح من التفسير لها ، ان وُعِيت حق وعيها لكان فيها ـ باذن الله ـ ثبات القلوب ، ولوُقِينا زلل الأقدام بعد ثبوتها .

● هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر : فيشير اشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة ، ويقول :

وكل امرىءٍ — والله بالناس عالم —
له عادة قامت عليها شمائلــه
تعوّدها فيما مضى من شبابــه
كذلك يدعو كل أمر أوائله

والشاهد فيه : الشطر الأخير ، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها .

ولكن اساتذة التربية الاوائل قربوا أدنى من الشاعر ، فاتضح وانكشف لنا مذهبهم ، بما فصّلوا وعينوا من معنى أوائل الامور .

منهم من صاغ ذلك في حروف قليلة شاملة ، فقال :

(الفترة بعد المجاهدة : من فساد الابتداء) .

ويريد بالفترة : الفتور .

فهو الابتداء اذن ، اي الخطوات الاولى للداعية المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله ، تكون صحيحة ، فيرتقي بلا فتور ونكوص ، وان فتر فبمقدار لا يتعدى ادنى ما أثر من سنّة النبي صلى الله عليه وسلم . وتكون معيبة هذه

الخطوات ، فيفتر وينكص عن الارتقاء .

ولكن من اين يعترض الداعية الفتور اذا دفعه مربّوه بقوة أول مرة ؟

وكيف لا يتسارع في يومه وغده سير من قطع به أمسه مرحلة نحو غايته ؟

ومن أيقن انه يتبع رسولاً من أولي العزم ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يستمد من عزمه ؟

فهي الخطوات الاولى اذن : من جعلناها له متقنة : ثبتت بعد ذلك قدمه ، بما يشاء الله ، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشيطانه المقص يقطع به حبل ما بيننا وبينه ، يتربص لذلك غفلة .

فان لم يحصل الشيطان على المقص ، وفاتته المفاجأة ، فانه يقنع بأن يمسك طرف الحبل يفلّ خيوطه بتدريج ، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوى ، ويريه قليل خيره وعمله كثيراً ، حتى يستولي عليه الغرور والتطاول ، فيرتكس هالكاً .

وهذه العقدة الثانية للشيطان ابصرها آخر من الصالحين ، ووصفها يحذرنا ، فقال :

(انما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء ، فمن صحت بدايته : صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته : فربما هلك) .

بل يهلك في الاغلب ، فان مبنى البداية على التجرد ، فاذا حرم من صفائه في الاول فان بنيانه يظل مهتزاً مهما شمخ عالياً ، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة اذا شمخ ، فانه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة او دعوة لمغنم ، لان من شأن الشيطان ان يزين البدعة ويجملها ، وان من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري ، ولئن تردد هنا الرجل الصالح فذكر مجرد الاحتمال واستعمل كلمة (ربما) ، ولئن ترددنا فاقتصرنا على (الاغلب) ، فان ثالثاً قد جزم بذلك فقال :

(من لم يصح في مبادىء إرادته : لا يَسلم في منتهى عاقبته) .

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي وتثبت من يختار ، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية ، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه واستقراء احوال من عرفهم .

وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء خطاً بارزاً ظاهراً في فنّنا التربوي الحركي .

● وهي النية الحرة

وانما يعنون بصفاء الابتداء معنيين يتتابعان في توالٍ ، فيتلازمان : النية الصالحة ، والهمة العالية ، حصرهما البحتري في شطر مبين وسماهما :

* نفس تضيء ، وهمة تتوقدُ [1] *

والنفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية ، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء .

وهي : (النية الحرة) التي ذكرها البحتري ايضاً في بيت آخر [2] ، فأحسن الوصف وأجاد ، فكأنها حرة مما يقيد غيرها ، من الاهواء والاطماع والمصالح ، لم يستعبدها درهم ولا دينار ولا جمال انثى ، ولم تكن رقيقاً لمنصب او شهوة .

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة ، ولا طلب مصلحة ، وانما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الاجر .

وكذلك كان الصالحون .

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي — رحمه الله — فقال :

(ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية) [2] .

ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين ، وعلى داعية الاسلام اليوم ان لا يستكبر عظم الانحراف الذي عمّ بلاد الاسلام ، فانه — إن قَرَنَ كل

(١) و (٢) ديوان البحتري ١/٦٢٩/٤٠ .
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم ٣٠/٢٩ .

خطوة بنية مثل الراشد الخامس – سيهزم حزبين باذن الله في أقل من سنتين .

ويتعاظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد ، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك – رحمه الله – محض التجرد حين عقد له واستخلفه وقال :

(لأعقدنّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب) [١] .

ولا تنتصر الدعوة إلا حين لا يكون في عقود الدعاة معها ومع ربها للشيطان نصيب .

بل العمل الصغير بالنية يعظم ، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله : (رُب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية) .

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثراً من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس ، كما ينص على ذلك طب عبد القادر الكيلاني في قوله : (كن صحيحاً في السر : تكن فصيحاً في العلانية) [٢] .

واما المخلط في نيته فيخلط عايه في اموره وسيرته ، كان ذلك في التاريخ على اهل التخليط حتماً مقضياً ، وهو

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ٢٩/٣٠ .
(٢) الفتح الرباني ٦٤ .

المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مُطَرِّف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشِخِّير العامري في قوله :

(صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا : صُفّي له . ومن خلط : خُلِّط عليه) .

ونتيجة التخليط ان يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة ، و (ان الخطأ الاكبر ان تنظم الحياة من حولك ، وتترك الفوضى في قلبك) ، كما يقول مصطفى صادق الرافعي [1] .

فاعرف سياسة النفس هذه ايها الداعية ، وأتقِن ولوجها قبل ولوج سياسة الحكم ، فانه : (فرض على العامل ان يعرف النية من الأمنية) . كما قيل .

فهناك نية ، وهناك أمنية ، والأمر كما قال يحيى بن معاذ :

(لا يزال العبد مقروناً بالتواني ، ما دام مقيماً على وعد الاماني) [2] .

وما اختار أحدٌ الامانيَ تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطواً ، ووجد ثَم السراب الخادع ، وعَدِم الماءَ وقت

---

(١) وحي القلم ٢/٤٤

(٢) تاريخ بغداد ٥/١٨٤ .

العطش ، واما المضيء النفس ، ومَن لا أمنية له من الدعاة ، فانك تجده سبّاقاً إلى كل خير ابداً ، وتجده على رِي دوماً ، فانه إن كان ذا قوة : استقى لنفسه ، او استسقى ، فيجيبه الله بهطل من السماء ، وان كان مستضعفاً : وجد وريثاً لموسى عليه السلام ، يسقي له ويزاحم الرعاع .

● وهو قدم الهـــول

والهِمّة قرينة النية ، فلا شيء بعد النية قبلها ، وكل الاتقان بعدها ، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الاولى فقد ضمن لهم الاستمرار ان شاء الله ، وقد قيل :

(همتك احفظها ، فان الهمة مقدمة الاشياء ، فمن صلحت له همته وصدق فيها : صلح له ما وراء ذلك من الاعمال) .

ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف ، فيقول :

(مثل القلب مثل الطائر ، كلما علا : بعد عن الآفات ، وكلما نزل : احتوشته الآفات) [1] .

فكما ان الاستعلاء بالهمة يبقي القلب نظيفاً بريئاً من المعنى الخسيس مشغولاً بالعظام ، فانه ايضاً يقي القلب

---

(١) الجواب الكافي ٧٠ .

الآفات والامراض وسهام الشيطان ، كما تقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد ، ومهمة المربي المسلم : ان يعلم الناشىء هذه النهضة العالية في مبادىء محاولاته .

ونهضة الجناحين هي بلورها كناية عن النفس التي احتوت تصميماً على حمل اثقال الدعوة إلى الله ، فان الجديد في سلك الدعوة ان فهم الدعوة في الاول مجرد تزكية نفس ، وصحبة اخيار ، وبث اشواق ، وفرصة تكافل ، فانه يحجم عن انكار المنكر على الظالم ، ويستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة ، والتي فهمها من قبله الرجال ، ويرجع عن الزحف يوم الزحف وقائمة اعتذاره تحت أحد إبطيه ، اولها : انه لم يُنذر بمثل هذا من قبل ، ولا يحتوي هذا الشرط عقده ، ولذلك حرص رجال التربية على ان تكون اول خطوة للسالك : خطوة هَول ، كخطوة السبعين من قدماء الانصار ساعة بيعة العقبة حين اخذوا على أنفسهم ان يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم واموالهم .

فهو هول الجهاد ، او هول الانكار ، وليس ما في التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات والتقلل من الاموال والملذات بأقل من هذين الهولين .

فان احب الدنيا فانما يحبها كحب محمد بن احمد

المعروف بابن رزقويه ، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراءه ، والذي ترجمه مخاطباً تلامذته :

(والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة ، ولكن لذكر الله ، ولقراءتي عليكم الحديث) (١) .

وإنما ذكر الحديث كمثل لجنس الصالحات التي يجب على الداعية ان يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها .

وعن اجيال السلف اخذ جيل المجددين في هذا القرن فقه الهمة ، ففهم الامام حسن البنا ان الداعية الهمام :

(يبذل كل ماله ، وكل دمه ، وكل نفسه ، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من اجلها) (٢) .

(١) تاريخ بغداد ١/٣٥٢ .
(٢) مذكرات الدعوة والداعية ٢٣٣ .

٤ ـــــــــ نحو أفراح الآخرة

لقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لنأخذ بأحسنها ، ولئن كان بعضنا ينسى ، في ظروف غفلة ، فان الله خير الغافرين ، وليس له ان يقعد بعد الذكرى مع القوم الغافلين ، وان عنده لذخيرة من فقه الاولين تعينه على سلوك سبل الرشد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين .

وان تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود تقوى الجوارح ، كما قال تعالى : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) . وقال : (لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (التقوى ها هنا) ، وأشار إلى صدره .

(فالكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة ، وتجريد القصد وصحة النية ، مع العمل القليل ، اضعاف اضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فان العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه انما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة ، مع سكونه ، صاحب العمل الكثير بمراحل)[1]

● استعلاء .. ثمنه التعب

وانما ارشدك الصالحون طريق الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة ، وعليك تعبه وركوب مصاعبه ، وذلك : ان السيادة نهج واضح الوعر .

وليس امرها بالهيِّن ، وانما هي قول ثقيل ألقاه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى اتباعه : يجب ان يسودوا .

ويمكن لهذا الثقل ان تخففه النية ، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها ، كما أشار الذين وصفوا الابتداء ، ولكن هداية القلب ، وإضاءة النفس ، ونهضات الهمة ، انما يذكيهن الجد ، فمن أرادهن دائمات : أدام جده ، وهو معنى قولهم :

---

(١) الفوائد لا بن القيم ١٤٠ .

(استجلب نور القلب بدوام الجد) .

فلا بد من الجد الدائم ، لأن خواطر الفكر دائمة ، وحركات الجوارح متصلة ، فان لم يكن الجد معهن دائماً : شغلهن ما هو دونه او ضده ، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء ، يحذرك إياه عبد الوهاب عزام ، وينبهك أن :

(الفكر لا يحد ، واللسان لا يصمت ، والجوارح لا تسكن .

فان لم تشغلها بالعظائم : شغلتها الصغائر .

وان لم تُعمِلها في الخير : عملت في الشر .

ان في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين ، ونفوراً عن المكروه والشاق ، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق ، ورضها وسسها على المكروه الاحسن ، حتى تألف جلائل الامور وتطمح إلى معاليها ، وحتّى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة .

علمها التحليق : تكره الاسفاف .

عرّفها العز : تنفر من الذل .

وأذقها اللذات الروحية العظيمة : تحقر اللذات الحسية الصغيرة) [1] .

---

(١) مجلة (المسلمون) ١/٥٩٥ .

● وانت صاحب إيمان .

(وحقيقة الايمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الايمان ، لانه يجاهد نفسه كذلك في اثناء مجاهدته للناس ، وتتفتح له في الايمان آفاق لم تكن لتتفتح له ابداً وهو قاعد آمن ساكن ، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة ، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته ، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » . ، وأول ما تفسد : فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح ، وتسترخي معه الهمة ، ويتلفها الرخاء والطراوة ، ثم تأسن الحياة كلها بالركود ، او بالحركة في مجال الشهوات وحدها ، كما يقع للامم حين تبتلى بالرخاء)[1] .

● **وأتعب الناس من جلّت مطالبه**

● وانت حر كريم .

و (لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله ، فلا يألو ان يبذل جهده إلى غاية الطاقة

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ١٠ .

ومبلغ القدرة ، مستمداً قوة من بعد قوة ، محققاً السحر القادر الذي في نفسه ، متلقياً منه وسائل الاعجاز في أعماله ، مرسلاً في نبوغه من توهج دمه اضواء كاضواء النجم تثبت لكل ذي عينين انه النجم لا شيء آخر)[1] .

● وانت صاحب غاية .

وانما يوصل الداعية إلى غايته : (شغفه بدعوته وايمانه ، واقتناعه بها ، وتفانيه فيها ، وانقطاعه اليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله ، وذلك هو الشرط الاساسي والسمة الرئيسة للدعاة)[2] .

● وانت طالب نفوذ إلى الله .

و (طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة ، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً ، حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه اليه ، عارفاً بطريق الوصول اليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من اسباب معونته ، لا تستفزه المعارضات ،

---

(١) وحي القلم للرافعي ١/٦٥ .

(٢) للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة والداعية .

شعاره الصبر ، وراحته التعب) [1] .

● محنة الفراغ والغفلة

ويجتمع هذا الكلام الحق ليقرر ان محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له ، ولا في سجنه ، وتعذيبه وتجويعه ، بقدر ما تكمن في استرخاء همته والتذاذه بالراحة .

ما محنة الداعية إلا لهوه وغفلته وجلوسه فارغا ، وربما زاد فينفتح له باب من االلغو بعد اللهو .

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات واسباب لهو تلفت انظارهم اليها .

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته .

ان غفلة الداعية محنة ، لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب ، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد .

وسيظل اسمنا مكتوباً في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول اوقاتنا ، وما دمنا لا نشغفها حباً ولا نتخذها حرفة .

ان الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له ان يمنح

---

(١) لابن القيم في الفوائد ١٩ .

نفسه إجازة ، وانما هو – كما شبهه بعض الافاضل – :
(وقف لله تعالى)

تماماً كنسخة من كتاب نافع حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله ، فكل داعية موقوف لله ، في جزء من اجزاء دعوة الله .

وان فضول الأوقات ليست قليلة ومحدودة فحسب ، وانما هي أردأ ساعات اليوم ، حيث يكون فيها الذهن والجسم متعبين أشد التعب .

وما تجاوز الاستاذ المودودي – رحمه الله – أعراف اجيال الدعاة حين صارحنا في تذكرته القيمة وقال :

(انه من الواجب ان تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الاقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب ، او عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة اولاده ، ولا تزال تقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي .

انه من الواجب ان تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من احيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة ، وتكسب لعقولكم الاخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وافكاركم بحيث ان شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية اذا استرعت

اهتمامكم فلا تلتفتون اليها إلا مكرهين . وعليكم بالسعي ان لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من اوقاتكم وجهودكم ، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لانفسكم من الغاية في الحياة ، وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم ، ملتحمة مع ارواحكم ودمائكم ، آخذة عليكم ألبابكم وافكاركم ، فانكم لا تقدرون ان تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم)[1] .

ولم يتجاوز حين كرر وقال ثانية أن :

(اسمحوا لي ان اقول لكم انكم اذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة ابرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو ازواجكم وابنائكم وآبائكم وامهاتكم فانكم لا بد أن تبوءوا بالفشل الذريع ، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان ، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والاخلاقية قبل ان تهموا بالخطوات الكبيرة)[2] .

ان من يطالب الآن بالغاء الراحة فانه انما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق رضي الله عنه تنطق بصراحة أن :

---

(١) و(٢) تذكرة دعاة الاسلام ٥٧–٥٩ .

(الراحة للرجال : غفلة) [1] .

وجددها امام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال : (لا تقعدوا فراغاً فان الموت يطلبكم) .

ذلك ان من اراد الراحة والسكون فان الموت والقبر يزودانه منهما حتى يشبع .

وكأننا – والله – قد أسرفنا في الغفلة ، ولا بد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو .

اننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من نخاطبه اننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية ، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جواباً لنا حين سأله سائل :

(ايجوز ان افسح لنفسي في مباح الملاهي) ؟
فقال :

(عند نفسك من الغفلة ما يكفيها) [2] .

فان اعترض معترض : اتيناه بمثل كلام ابن القيم حيث يقول : (لا بد من سِنة الغفلة ، ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم) [3] .

---

(١) ادب الدنيا والدين للماوردي ٨٢ .
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٤٢٢/١ .
(٣) الفوائد ٤١ .

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لاطلاقات من عاب الراحة من ارهاق ، وإنما نريد — كما ارادوا — تقليلها إلى ادنى ما يكفي الجسم ، كل حسب صحته وظروفه ، خاصة وان المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للانتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية ، ذلك انهم كانوا يعيشون في محيط اسلامي تسوده الفضائل ، ويسوده التواصي بالحق ، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن اعين العلماء وسيوف الامراء ، أما الآن فان المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصَراً بواسطة الاذاعات والتلفزة والصحف ، وجعلت إلقاءات جميع اجناس الشياطين قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور ، فضلاً عن ارتفاع حكم الاسلام عن الارض الاسلامية التي يعيش فيها ، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته اكثر مما كان يجب على السلف .

وما اصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي — رحمه الله — لهذه الحقيقة حين يقول :

(ان هذه المدنية السفيهة، المصيرة للارض كبلدة واحدة ، يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني ، بالجرائد صباحاً ومساء ، غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة ، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة) .

فكن خفيف النوم ايها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة .

وانتبه من رقدة الغفـــلة ، فالعمر قليـــل
واطّرِح سوف وحتى فهما داء دخيـــل

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحياناً بلفظ آخر سموه : حفظ الوقت ، أو مراعاة الوقت .

فيرى الامام البنا ان :

(من عرف حق الوقت فقد ادرك قيمة الحياة ، فالوقت هو الحياة) .

او كما قال في خطبة المؤتمر الخامس :

(انما الوقت هو الحياة) .

يخالف بذلك قول الماديين : الوقت من ذهب .

وكان – رحمه الله – يحب ان يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده ، فينوي لكل ساعة نوع خير ، و :

(ينام على افضل العزائم) [1] .

وترك الفراغ ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة ، معناهما التعب ، ثم التعب ، واستفراغ الوُسع في العمل لله . نطق بذلك الامام الشافعي ، ونفى ان تصح مروءة داعية يطلب الراحة ، فقال :

---

(١) مجموعة رسائل الامام ٤٩٨ .

(طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات ، فان أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان) .

ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله ، قال : (اذا خلع الراحة ، واعطى المجهود في الطاعة) [1] .

فالداعية الصادق يخلع الراحة ، ويعود لا يعرفها ، وتصبح عنده ذكريات شبابه الاول وصباه فحسب .

واما الامام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الاوصاف عملاً ، حتى قال لابنه :

(يا بني : لقد اعطيت المجهود من نفسي) [2] .

يعني في المحنة .

وبذلك حدّ حدّاً لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه ، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه ، واستفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة .

طريق رسمه الامام احمد لا يسعنا ان نحيد عنه ، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم ان يقفوا دونه ، نصيباً مفروضاً ، هو : المجهود من النفس ، وعلامته حين

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٧٥ .

(٢) مناقب الامام احمد لابن الجوزي ٣٣٩ .

المحن : الصبر على الأذى حتى الموت . وعلامته في حياتك اليومية : انك ان جئت إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتيك أنيناً . وفي عضلاتك تشنجاً ، لكثرة ما تحركت في نهارك .

وانما نسميه التعب ، والأنين ، والتشنج ، لغرض تفهيم الداعية الجديد ، لان هذه الاصطلاحات هي لغة اهله وعموم الناس الذين تركهم من قريب ، وأما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو اليه نفوسهم ، وعنهم نقله البحتري في وصفه لممدوحه حين يقول :

قلب يطل على افكاره ، ويـــدٌ
تمضي الامور ، ونفس لهوها التعب[1]

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرماناً من لذة ، وخداع ألفاظ ، وغواية اتباع الشعراء ، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف ان الراحة الحقيقية : راحة الآخرة ، لا راحة الحياة الدنيا ، ولذلك لما قيل للامام احمد :

(متى يجد العبد طعم الراحة) ؟
قال :
(عند أول قدم يضعها في الجنة) [2] .

---

(١) ديوان البحتري ١/١٧٢ .
(٢) طبقات الحنابلة ١/٢٩٣ .

ولما تعجب غافل من باذل وقال له :

(إلى كم تتعب نفسك ؟) .

كان جواب الباذل سريعاً حاسماً :

(راحتها أريد) [1] .

(فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته : جعله عمارة لقلبه وروحه . وكلما نقص شيء من دنياه : جعله زيادة في آخرته . وكلما منع شيئاً من لذات دنياه : جعله زيادة في لذات آخرته . وكلما ناله هم او حزن او غم : جعله في افراح آخرته) [2] .

ومن لمح فجر الأجر : هان عليه ظلام التكليف ، كما يقول ابن الجوزي .

ولعمرو الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليعقل مراده الراقدون .

---

(١) و(٢) الفوائد لابن القيم ٤٢-١٨٩ .

٥ ــــــــــ الأخوة شعار دعوتنا

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية ، والتعامل الأخوي الايماني : ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وعينان نضاختان ، تسكبان خيراً للدعاة لا ينضب .

(انهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم ، فاذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه) [١]

● التقوى أولاً

وانما التسبيح عنوان الايمان وإسلام النفس لله تعالى ؛

---

(١) الظلال ٤/٢٢-٣٢ .

والايمان عنوان التصور الموزون ، وضمانة الثبات امام مخاطر الطريق .

(ركيزة الايمان والتقوى أولا .. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته » ..

اتقوا الله – كما يحق له ان يُتقى – وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له اشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى ، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

« ولا تموتُنَّ إلا وانتم مسلمون » ..

والموت غيب لا يدري انسان متى يدركه ، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله ان يكون منذ اللحظة مسلماً ، وان يكون في كل لحظة مسلماً . وذكر الاسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منهـــا .

هذه هي الركيزة الاولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها ، إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً ، ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة ، انما تكون هناك مناهج جاهلية ، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الارض للبشرية ، انما تكون القيادة للجاهلية) [1] .

(لا بد من الايمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر ، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي ، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل ، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر ، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الايمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه ، وللانسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون .. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الاخلاقية ، ومن الباعث على ارضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد ، ومن سلطان الله في الضمائر ، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك .

ثم لا بد من الايمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير ،

---

(١) الظلال ٤/٢٢-٣٢ .

الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم ، وثقلة المطامع .. وزادهم هو الايمان ، وعدتهم هي الايمان ، وسندهم هو الله .. وكل زاد سوى زاد الايمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الايمان تفل ، وكل سند غير سند الله ينهار) [1] .

ويحدثنا اقبال عما فعله هذا الايمان من توحيد التصور الذي انتبه اليه سيد قطب فيقول :

وُحِّد الرئي لنا والفكرة
كسهام جمعتها جعبة
نحن فكر وخيال واحد
ورجاء ومآل واحد[2]

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد ، بأدنى ما يكون من الوسائل ، فالرؤية واحدة ، والفكر والخيال واحد ، والرجاء واحد ، والمصير واحد ، كل ذلك يعطيه الايمان، وما أسهل تناوش من ملك القلب لهذا الايمان البسيط ، ذي الأعطيات الثمينة .

---

(١) الظلال ٤/٢٢-٣٢ .

(٢) ديوان الاسرار والرموز ٨٩ .

● ونثني بالأخوة ...

(أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الاخوة .. الاخوة في الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ..

فهي اخوة اذن تنبثق من التقوى والاسلام .. من الركيزة الاولى .. اساسها الاعتصام بحبل الله – اي عهده ونهجه ودينه – وليست مجرد تجمع على اي تصور آخر ، وعلى اي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ..

هذه الاخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتنّ الله بها على الجماعة المسلمة الاولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً) [1]

(وهكذا قامت الجماعة المسلمة الاولى – في المدينة – على هاتين الركيزتين .. على الايمان بالله : ذلك الايمان

---

(١) الظلال ٤/٢٣–٢٨ .

المنبثق من معرفة الله – سبحانه – وتمثل صفاته في الضمائر ، وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الاحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق ، والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق .. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا انه وقع ، لعد من أحلام الحالمين ! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والانصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها اقرب إلى الرؤى الحالمة ! وهي قصة وقعت في هذه الارض ، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان !

وعلى مثل ذلك الايمان ، ومثل هذه الاخوة ، يقوم منهج الله في الارض في كل زمان)[1] ..

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الاخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة ، فان الاخوة شرعة دعوتنا وشعارها واسمها ، وميثاقها الذي واثقتنا به ، وكتابها الذي كتبته على نفسها ، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضيلة ، وتجميع انصارها إلى الله على التحابب ، والتكافل ، والتسامح ، ومكملات هذه الرواسي الشامخات ، وكمالها ان ترى من بعد وحدة الرؤية والفكر والخيال والرجاء والمصير : وحدة القلب

---

(١) الظلال ٤/٢٣-٢٨ .

والروح ، بل ووحدة اللفظ ايضاً ، فلا تكون هناك الا صيحات واحدة ، بحروف متقاربة ، تعبر عن مفهوم واحد ، كما أراد إقبال حين يقول :

نحن من نعمائه حلف اخاء

قلبنا والروح واللفظ سواء[1]

فلم يقنع بوحدة القلب ، حتى توحدت الالفاظ .

● عقد الاخوة

ويظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقداً واجب الوفاء ، فقد تكلم ابن تيمية عن (عقد الاخوة) هذا ، وبين ان الحقوق التي ينشؤها اذا كانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في احاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فانما هي : (حقوق واجبة بنفس الايمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله ، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وان لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة)[2] .

فيأتي العقد يؤكدها اذن ، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الانصار والمهاجرون يتوارثون بالتآخي الذي اقره النبي صلى الله عليه وسلم بينهم

---

(١) ديوان الاسرار والرموز ٨٩ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠١/١١ .

اول مقدمه المدينة ، فقد قال اكثر الفقهاء بنسخ ذلك ، وأجازه ابو حنيفة واحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه .

ان هذا العقد الاخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتاً ، وما نراه الا كبيعة سلمة بن الاكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعته الاولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة ، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله : (بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فقال لي : يا سلمة : الا تبايع ؟ قلت : يا رسول الله قد بايعت في الاول . قال : وفي الثاني)[1] ، فكذلك المسلمون : أوجب الاسلام على بعضهم البعض حقوقاً ، ويتبايعون بعقد اخوة في الثاني ، زيادة خير ، وابتغاء توثق ، وعنصر تذكير ، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال — رحمه الله — في رموزه حين يقول :

كل فرد بأخيه ائتلفا
مثل در في سموط ألفا
لفهم في عيشهم معترك
كل فرد بأخيه ممسك
من جذاب تتوالى الأنجم
كوكب من كوكب مستحكم[1]

---

(١) صحيح البخاري ٩/٩٨ .
(٢) ديوان الاسرار والرموز / ٨٤ .

وهكذا ، فانه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثمن من غدوة يهب فيها لدعوته — بفضل الله — ناشئاً يغمس نفسه فيؤازره ، فيستغلظ ، فيستوي على عقد الاخوة ، يعجب الدعاة ، ويغيظ به الكفار .

● ميزان التصاحب

وهكذا تكون الاخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيتنا بعد الصلاة والتسبيح ، وما من جزء من اجزاء الحركة الاسلامية يقذف بنفسه في ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الاخوة الايمانية في اعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه ، ولا مناص من ان تَدرج بدايته على طريق الايمان واستغلال دقائق الليل الغالية ، ويكون فيه (ادب الاخوة) مترجماً في تناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمها التحالم — ان لم يكن الحلم — عند ابطاء المقصر وتجاوز الملحاح ، مثلما يعلمها المكافأة والوفاء والشكر عند إسراع المبادر ، وعدل خفيض الجناح .

لقد أحب الامام البنا هذا الادب للدعاة ، ووضع له منهجاً بحيث (يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الافعال والعمليات) [1] ، ورأى رحمه الله من تآخي الرعيل الاول ما أقر عينه حياً ، وبرهان وفاء

---

(١) رسالة التعاليم / المجموعة ٢٨ .

محبيه من بعده ان يكونوا دوماً عند محاسن هذا الأدب ، وأن يفيئوا اليه عند أول انتباهة اذا أنستهم الغفلات .

إنها نعمة الاخوة .

يجعلها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أثمن منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الاسلام فيقول : (ما أعطي عبد بعد الاسلام خيراً من أخ صالح ، فاذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به) .

ويسميها التابعي مالك بن دينار : روح الدنيا ، فيقول :

(لم يبق من روح الدنيا الا ثلاثة :

لقاء الاخوان .

والتهجّد بالقرآن .

وبيت خال يذكر الله فيه) .

ويحكر لها الشاعر صفة الذخيرة ، فيقول :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة
ولكن اخوان الثقات الذخائر

ولهذا كثرت توصية السلف باتقـــان انتقاء الاخ الصاحب ، لتصاب الذخيرة الحقة ، والروح الحقة ، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن :

(ان لك من خليلك نصيباً ، وأن لك نصيباً من ذكر

من أحببت ، فتنقوا الاخوان والاصحاب والمجالس)[1] .

فأما أولاً : فقد عمموا صفة الخيرية باطلاق تحكم الانتقاء ، وعبروا عن ذلك بقولهم :

أنت في الناس تقــاس
بالذي اختــرت خليلا
فاصحب الاخيار تعلـو
وتنل ذكراً جميـــلا[2]

ثم خصصوا ، ففسروا الخير بالتقوى ، وقالوا :

نافس، اذا نافست، في حكمة
آخِ ، اذا آخيت ، أهل التقى
ما خير من لا يرتجى نفعــه
يوماً ، ولا يؤمن منه الاذى[3]

ثم زادوا وذهبوا أبعد ، فعددوا صفاتهم ، يعينونك على دقة الاختيار .

* أعلى صفاتهم : طيبة القول ، ذكرها عمر رضي الله عنه فقال :

(لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبيني لله في

---

(١) كتاب الزهد لابن المبارك ٢٣٢ .
(٢) نفح الطيب للمقري ٦٧/٨ .
(٣) لابي العتاهية في ديوانه ٢٥ .

التراب ، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون لحقت بالله »[1] .

• ومن صفاتهم : أن أحدهم : (يرفع عنك ثقل التكلف ، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق – رضي الله عنهما – يقول : أثقل اخواني علي : من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من اكون معه كما أكون وحدي)[2] .

• ومن صفاتهم : ترك حضيض الدينار والدرهم ، والسمو إلى العلا ، وضربوا لذلك الامام احمد بن حنبل في انتقائه الاصحاب مثلاً ، وذلك حين يقول الذي يطريه :

ويحسن في ذات الإله اذا رأى
مضيماً لأهل الحق لا يسأم البلا
واخوانه الأدنون كل موفـق
بصير بأمر الله يسمو إلى العلا[3]

• ومن صفاتهم : مذاكرة الآخرة ، كما قال الحسن البصري :

« إخواننا أحب الينا من أهلنا وأولادنا ، لان أهلنا يذكروننا

---

(١) الزهد لابن المبارك ٤١٦ .
(٢) احياء علوم الدين ١٨٨/٢ .
(٣) مناقب الامام احمد لابن الجوزي ١١٤ .

بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة)[1] .

* ومن صفاتهم : الإيثار ، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقول :

أبداً أظل مع التقاة ، مع الدعاة العاملين
الناشرين لواء أحمد عالياً في العالمين
المنصفين المؤثرين على النفوس الآخرين
معهم أظل ، مع التقاة ، مع الدعاة المسلمين[2]

* ومن صفاتهم : بذل النصح ، فأحدهم : (صالح يعاونك في دين الله ، وينصحك في الله) .

● آفات المجالس

وهذا الانغماس يؤدي إلى الاجتماع والمجالسة بالتالي ، ولذلك وجب التعرف على سيماء المجالسة النافعة ، والابتعاد عن بعض المعايب التي تلحقها .

ويجمع ذلك : تحري النفع في الدين فانها الكلمة الجامعة المانعة ، والمادة الموجزة في قانون التآخي ، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فيقول :

(انما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه)[3] .

---

(١) احياء علوم الدين ٢/١٧٦ .
(٢) مجلة التربية الاسلامية ٧/٥٥ .
(٣) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٦ .

فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه وعلمه ، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه ، ولا يعرف مجالس اللغو واللهو وقتل الفراغ .

وشرح ذلك اقبال بشطر حاسم ، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده ، فقال يدعو الله عز وجل :

هب نجيّا يا ولي النعمـــةِ
محرماً يدرك ما في فطــرتي
هب نجيا لقِنا ذا جنــــة
ليس بالدنيـــا له من صلة[1]

فهذا جماع القول :

ان صاحب الداعية المسلم : داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة .

صلته بالآخرة ، وشوقه إلى الجنة .

بينه وبين الدنيا انقطاع وجفاء .

ان تحريت عنه : وجدته .

انه هو صاحبك .

آخه ، وأحببه ، واصحبه ، وأعطه مثل الذي يعطيك ، والا فانك انت العاجز ، فانه كان يقال :

---

(١) ديوان الاسرار والرموز ٧٢ .

(أعجز الناس من فرط في طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر بهم) .

فاطلب الاخوان ، نرفع عنك صفة العجز .

ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك ، يدل على تجربة داعية من اهل الوعي ، شخص فيه أخطار المجالس فقال :

(الاجتماع بالاخوان قسمان :

احدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، فهذا مضرته ارجح من منفعته ، واقل ما فيه انه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على اسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، فهذا من اعظم الغنيمة وانفعها ، ولكن فيه ثلاث آفات :

احداها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام والخلطة اكثر من الحاجة .

الثالثة : ان يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود)[١] .

---

(١) الفوائد لابن القيم ٥١ .

والذي يؤسف له ان مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية ، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا ، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد ، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الاسلام .

● والمرء يعجب من صغيرة غيره ! .

ولو ان عادتَي التزين والبطالة تقفان عند حدهما لعولج امرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيفين ، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما ، ويتولد عن اجتماعهما خلق الضيق عن العفو ، بينما يشير استقراء الحياة الجماعية إلى ضرورة خلق التسامح والمرونة لمن يحياها .

وقد يظن البعض ان مثل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة ، ولكن من يعاني ادارة العمل اليومي للدعوة الاسلامية يدرك ضرورته ، ويعرف كم من الترف ، بل والخطر ، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواعظ ليهمس بمعاني فنون التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح والعفو عن صاحب الزلة والخطأ ، ولا بد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الايمانية ، ولا بد من سيرهما معـــاً .

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين والمعاصرين على التوصية بسعة الصدر ، والتحابب الاخوي .

يقدمهم الفضيل بن عياض فيقول : (من طلب أخاً بلا عيب صار بلا أخ) ، فضع في حسابك عندما تعقد (عقد الاخوة) ان من تتعاقد معه غير معصوم .

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية ، فيقول مشرقيهم :

* لا لوم في خطأ ولا تثريبا *

ويقول مغربيهم :

* سامح أخاك اذا أتاك بِزلّةً *

ويقول ثالثهم :

اذا ما بدت من صاحب لك زلة
فكن انت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه
كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط اذى
ولا مانع خيرا ، ولا قائل هجرا

ولكن كم أرتنا الايام من قال هجرا ، وتراه اذا ما دعوته إلى اللين يعبس ويبسر ، ويذهب مغاضباً ، كأنما تدعوه إلى شيء نكر ، وانما هي سذاجة نفسه نريد ان نقيه

اياها ، وانما هو تربص العدو نريد ان نبعده عنه ، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط اخوتهم المستقيم .

وهاؤم تفحصوا تاريخنا ، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم ، فما استطاع من قيام وما كان منتصراً ، ولفته دوامة العيش المعقد فضاع في خِضَمّها منسياً ، يأكل ويشرب ، وليس له من بعد ذلك نوع وجود .

ان جموع هؤلاء المغاضبين انما تأخرت وضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الاخوة تخل ، ولو انهم استقاموا على الطريقة الاولى وراغوا إلى فقه الأخوة الموروث ، لما مسّهم اللغوب والضياع .

ان الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص على انك : (اذا وجدت من اخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثتَه ، فتب إلى الله تعالى ، واذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة احدثتها فاشكر الله تعالى) .

فاتهم نفسك اذا عوملت بجفاء او رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم .

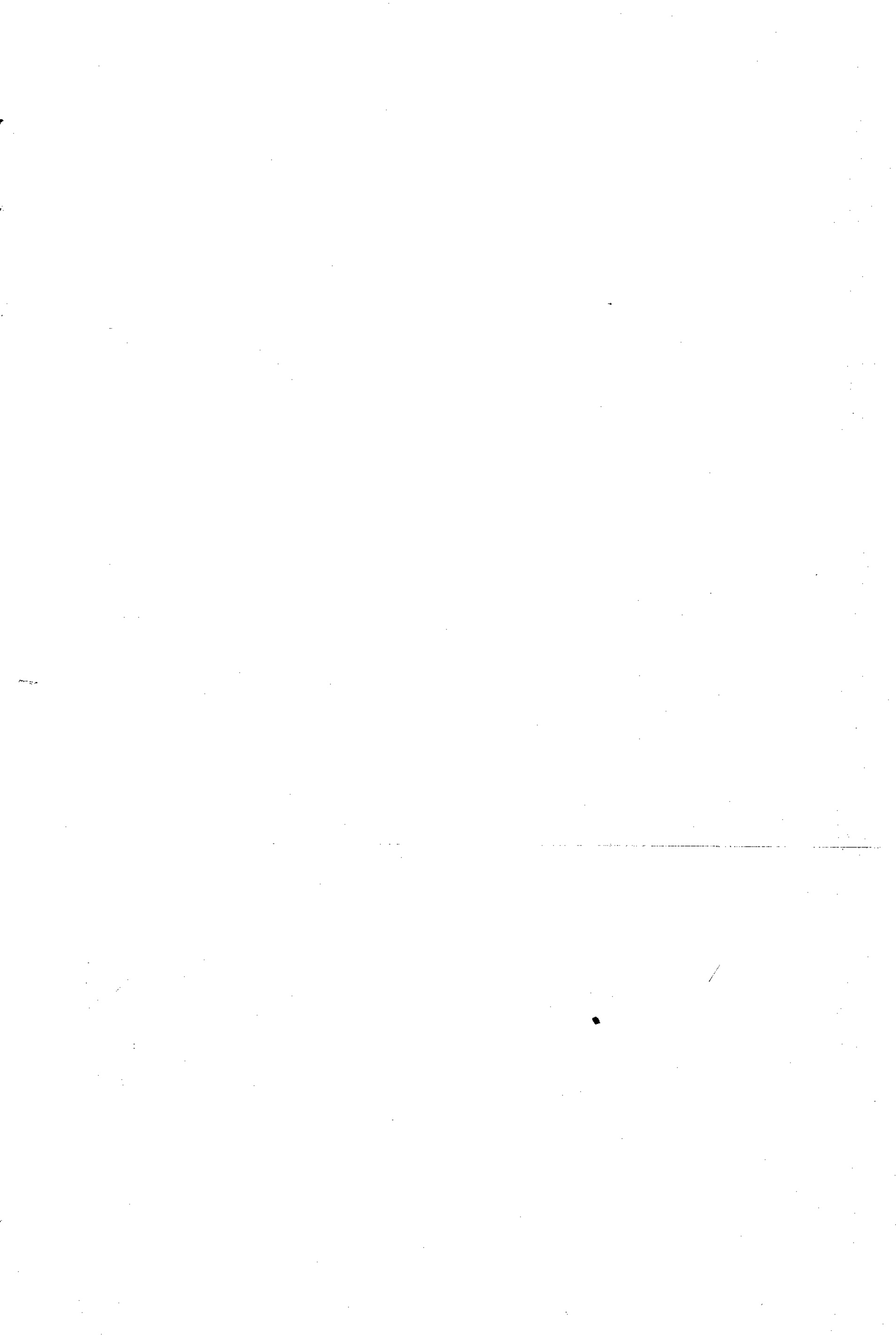
ان هذه النصوص القديمة من فقه الاخوة الايمانية ، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه ويقول :

في فؤادي بحران : ملحٌ وعذب
وبــه صرصر وريــح رخاء
فهو مُرّ على البغاة عصوف
وهو عذب لصاحبي وصفــاء[1]

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم ان تملأ قلبك من مشاعر الاخوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب ان تضع فيه من مقت اهل الباطل البغاة .

---

(١) ديوان المثاني ٣٨ .



٦ ـــــــــ أشجار الإيمان

وحدة العبودية ، وتكاملها ، في أجزاء هذا الكون ، لله تعالى الذي خلقه : حقيقة يراها المتفكر ، اذا استطاع ان يفلت من الصخب الملهي ويتأمل في هدوء ورَوِيّة .

منها : عبودية لا تشوبها الوساوس ، لبساط الارض جميعه ، حشائشه والباسقات ، نبهك القرآن لها ، في قوله عزّ وجلّ :

(والنجم والشجر يسجدان) .

قال الطبري : (يعني بالنجم : ما نَجَم من الارض من نبت ، وبالشجر : ما استقل على ساق) [1] .

---

(١) تفسير الطبري ١/٥١٦ – طبعة دار المعارف .

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة ، يديم له سجوداً قلبياً ، آيته الرضا عن الله ، والتسليم لحكم حلاله وحرامه ، به يستكمل سجود جبهته مغزاه .

ومتى ذاق المؤمن ، بالخلوات المسترسلة ، لذة مراقبة هذا السجود الاخضر ، المتوشح بألوان الزهر ، واذن لقلبه ان يبالغ في الهبوط مقلداً ، حتى يلامس أوطأ الإخبات : نادى غيره للمشاركة ، وعرض عليه الرفقة ، منخلعاً عن حسد واحتكار .

وتلك هي دعوة إقبال ، لما ظفر بسر السياحة الايمانية الصامتة ، في البراري الناطقة ، ونبهك إلى انصات واجب ، لتسبيح دائب ، وأوصاك ان :

دع الدور واطلب فسيح البراري
وانظر إلى صَفَحات الجمالِ
على حافة الماء دون مـــلال
تأمل ترقرق ماء زلالِ
وحَدِّق إلى نرجس ذي دلال
وقبِّل عيـــوناً لـــه كاللآلي [1]

وكان عبد الوهاب عزام اول مجيب له ، وطفق يستغرق

---

(١) ديوان رسالة المشرق ٣٠ .

في التأمل ، فرآه جاهل بما هنالك ، فأنكر عليه ، فقال :

لست أخلو لغفلة وسكـــون
وفرار من الورى وارتياحِ
انما خلوتي لفكر وذكـــرٍ
فهي زادي وعُدّتي لكفاحي[1]

وما زاد بهذا على أن جدّد مذهباً سالفاً ، وعرفاً عند أول المسلمين ، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم والتعليم ، والامر والنهي ، وضرورات المعيشة ، يميلون فيها إلى التفرد خارجاً ، والركون إلى ارباض مدنهم ، والجلوس بين الزروع ، يرجون لانفسهم بصائر وتذكرة .

وروى ابن القيم ان شيخه ابن تيمية ، رحمهما الله ، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً ، فراقبه ، فوجده يعتزل في غوطة دمشق وحقولها ، حتى غدت عنده عادة .

وما ذاك على اسلوب القرآن بغريب ، ولا على رموز النص الشريف المأثور وتشبيهاته ، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة وخصال الفطرة ، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير والتمثيل ، في نحو على منحاهما ، يدلك على قلوب فقهت المناسبة ، واستوعبت الاشارة ، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر ومعاني الايمان .

---

(١) ديوان المثاني ١١٧ .

انها غابة من أشجار الايمان ، فيها أيك ملتف متشابك ، تجعل سيرك في ظل وارف ، ومداعبة من زكي العبيق .

● تفجؤك فيها شجرة التوحيد .

وهي شجرة غرسها القرآن ، تستلقي تحت اغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى :

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربهـــا ، ويضرِب الله الامثال للنـــاس لعلهم يتذكرون) .

قال ابن القيم :

(فانه سبحانه شبّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الاصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين . واذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب ، التي فروعها من الاعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الاعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، واخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حق رعايتها) [1] .

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٨٨ طبعة الوكيل .

ومن السلف من قال : ان الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح ، وقال الربيع بن أنس : ذلك المؤمن ، اصل عمله ثابت في الارض ، وذكره في السماء .

قال ابن القيم :

(ولا اختلاف بين القولين ، والمقصود بالمثل : المؤمن ، والنخلة مشبهة به ، وهو مشبه بها)[1] .

• ومن مكانك تحتها : تشم عبير ورود بقربها ، من شجرة تسمى **شجرة الطاعة** ، شهدت منحة الرضوان ، لما أسبغت ، يوم نزلت : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً) .

ويفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد ، غير مضطرب لحرمان وفوات ، ينتظر فتحاً لحركة الاسلام تندكّ به صروح الضلال ، قد قدّم له التبايع على الموت ثمناً .

• فان اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة ، وحزَبَك الامر : لجأت إلى **شجرة الترحاب** ، تطلب الطمأنينة عندها ، هازاً جذعها ، لتغدق عليك من بركتها ، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الارض ، فجاءها نداء :

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٨٨ — طبعة الوكيل .

(وهزّي إليكِ بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جَنياً ، فكلي واشربي وقرّي عينا) .

فتأكل رطيبات وتقنع بها ، عازفاً عن بطر المترفين ، وتغرف من ثَمّ من سَرِي بين يديك يجري ، مستعلياً بعزة دونك مدارجها ، ترقى اليها وتَسْري .

* وللنبي صلى الله عليه وسلم غِراس في هذه الغابة ، كما ان الحكمة اشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة ، إيماء إلى هذا الارتباط ، ربما ، واثارة لتطلع الغافل .

منها : شجرة الوفاء ، عنوان امتزاج الارواح الذاكرة ، تنطق بالشكر ، وتحفظ الفضل لأهله ، وتعلن عِرفان الجميل .

وهي نخلة ، تَنَهّدتْ عند الفِراق .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

(كان جذع يقوم اليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل اصوات العِشار ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه) [١] .

اي كأصوات النياق التي اثقلها حمل بطنها وقَرُب

---

(١) صحيح البخاري ١١/٢ .

مخاضها . وتلك من معجزاته ، عليه افضل الصلاة وأزكى السلام .

جذع أنيلَ الشرف ، فوفى ، واجتمع له الحَنين ، فاستبدَّ به استبداداً ، فرَقَّ منه الأنين .

وما منا أحد إلا وفي بيته ديوان حديث ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده يُفقّهه أمرَ دينه ، ويلُقنه شرائع الاسلام ، والوفاء يليق لمثلنا ، نتعلمه من الجذع ، ونترجمه صُوراً من الاتّباع والاقتفاء .

• وشجرة خامسة تسمى **شجرة الثبات** ، **تلوذ بها يوم تتوزع الناس الاهواء ، فتطلب النجاة معتزلاً الفِرَق كلها** ، (ولو أن تعضَّ بأصل شجرة)[1] .

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن ابي مُليكة :

(اللهم انا نعوذ بك ان نرجع على أعقابنا أو نُفتَن)[2] .

فلأمر ما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر ، في إلحاح يزيد معه المعتصم شدَّ نواجذه ضاغطاً ، لو تخيّلته ، لتردّد قلبك يهتز في قلق ، بين رهبة من استرخاء يعتري فيَجرِف ، وأمل في إتمام يُنجي .

(١) صحيح البخاري ٩/٦٥ .
(٢) صحيح البخاري ٩/٥٨ .

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك اذ الناس تلهث عطشاً ، ويبلُ حلقك بارداً ، فتضاعف العضّ مُبالغاً ، كأنك تمص الثبات راضعاً .

* **وسادسة تُعرف بشجرة الأنس** ، تُصاحبك عند الوحشة ، وتخفف رطوبتها جفاف هفواتك . غرَسها النبي صلى الله عليه وسلم لما مرَّ بقبرين يُعَذبان ، فكان أن :

(أخذ جريدة رطبة ، فشقها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يا رسول الله : لِمَ صنعت هذا ؟

فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييْبسا)[1] .

ففهم بُريدة الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ من ذلك انها سُنّة ، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان ، فما زال الناس يقلدونه في ذلك .

وقد لا نخلو من لمم يكدر صفو العمل ، او من تتبّع بفضول لما في يد اهل الدنيا من اموال الاستدراج ، يكون معه الأرق المتلف ، واضطراب النوم ، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي ، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك .

* **ثم شجرة المفاصلة ، شهدت كيف يُتمم استقلال**

---

(١) صحيح البخاري ١٤/٢ .

الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف ، وذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والانصار حين سيره نحو بدر ، يريد أن يقاتل معهم ، حمية ونصرة لقومه ، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت مَعْلَماً في الطريق ، ذكرتها عائشة رضي الله عنها : لحق بهم ، فالتفت اليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

(ارجع ، فلن أستعين بمشرك) [1] .

فمضى ذلك أصلاً ، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة .

وتحاصر جبهات الاحزاب اليوم دعوة الحق ، تبثّ إرجافها ، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع ، فيقصد الدعاة الاشجار المعالم الضخام ، فتتشهد بانتفاء اللقاء ، وعيب النزول بعد الاستعلاء .

• ولما فقه الناس هذه الامثال : تتابعوا في سباق يغرسون ، فكانت شجرة ثامنة عرفت بينهم انها **شجرة الاغتمار** .

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر ، فكان غارسها اذا مرّ به صديق له : اقتطف عنقوداً ودعاه ، فيأكله ، وينصرف شاكراً .

---

(١) صحيح مسلم ٢٠١/٥ .

فلما كان اليوم العاشر : قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها : ما هذا من أدب الضيافة ، ولكن أرى إن دعوتَ اخاك ، فأكل النصف ، مددتَ يدك معه مشاركاً ، إيناساً له ، وتبسطاً ، وإكراماً .

. فقال : لأفعلن ذلك غداً .

فلما كان الغد ، وانتصف الضيف في اكله : مدّ الرَّجلُ يده وتناول حبَّة ، فوجدها حامضة لا تساغ ، وتفلها ، وقطّب حاجبيه ، وأبدى عَجَبه من صبر ضيفه على اكل امثالها .

قال ابو حيان التوحيدي : فقال الضيف :

قد أكلت من يدك ، من قَبْلُ ، على مَرّ الايام ، حُلواً كثيراً ، ولم أحب ان أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف [1] .

وما هذه من قصص الأغاليط ، ولكنه مَثَل ضرب لك ايها الاخ الداعية فاستمع له ، ومجاز تدلف منه إلى العدل ، مفتوح امامك .

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة ، واستقام له الصواب ، فان أخطأ معك اخ لك ، فلا تجرمنَّك كبوته على الهجران ، والتأفف ، والضجر ، والانتقاص منه ، بل

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١٢١/٢ .

ولا على العتاب ، انما تتَصبّر ، وتكظم ، وتعفو في سِرك ، مستحضراً جَمال سابقاته ، وجياد أفعاله ، وحلو مكرماته ، اذ لعله قد أعانك على توبة ، او ظاهرك عند تعلمك رديفاً ورفيقاً وسميراً ، او علّمك باباً مما علّمه الله وطريفة .

• فان استفدت ، ونشرت الانصاف ، فقد أذن لك في ان تستلقي تحت شجرة هيفاء ، كثيرة الثمار والورود ، يخلب نظر الرائي جمالها ، وتُنطق المستمعَ حمداً لرفيع ذوق غارسها .

اسمها : شجرة الزهد .

وهي شجرة قلبية فريدة ، لم يَسبق صاحبَها أحدٌ إلى استنبات مِثلها ، فجاءت بدعة ، ووصفها فقال :

غَرسَ الزهدُ بقلبي شجره
بعد أن نقّى بجهدٍ حَجَرَه
وسَقاها إثْرَ مــا أَوْدَعها
كَبِدَ الارضِ بدمعٍ فَجَّرَه
ومتى أبصرَ طيراً مُفســداً
حائماً حول حِماها زَجَرَه
نمتُ في ظلٍ ظليلٍ تحتَهــا
رَوّح القلبُ ونَحّى ضَجَره

ثم بايعت إلهي وكـــذا
بيعة الرضوان تحت الشجره

فانظر أطوار رعايته لها ، وعنايته بها ، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من احجار الحسد والرياء والتكبر وسوء الظن ، وكيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الاخيرة ، وكيف زجر شياطين الإنس والجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها ، وقلِّدْه ، وافعل فعله : تورق لك اختها ، وتتفتّح لك منها الزهور بألوان وعطور ، فتنام تحتها كما نام ، تستشعر شعور اهل بيعة الرضوان ، وكأنك فيهم ومعهم ، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعاً عن الاسلام .

• ووعى الامام حسن البنا — رحمه الله — فَنَ زراعـة اشجار الإيمان ، فغرس لك الشجرة العاشرة ، وهي **شجرة الحِلم** ، وصفها مخاطباً الدعاة فقال :

(كونوا كالشجر ، يرميه الناس بالحجر ، ويرميهم بالثمر) .

ولقد أجاد وأفاد ، فان في اكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل ، يميلهم إلى تكذيب دعاة الاسلام وإيذائهم بالباطل . ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين ، وقابل الاساءة باساءة ، لعفت رسوم الاحسان واندثرت ، ولكنه الصدر الواسع ، والاحتساب ، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون .

* * *

اما بعد :

فليس الامام البنا بآخر غارس في غابة الايمان ، وانما وضعنا في يدك الفأس ، وأعطيناك البذر ، فابذر : تجد الثمر وفيراً ، مباركاً .

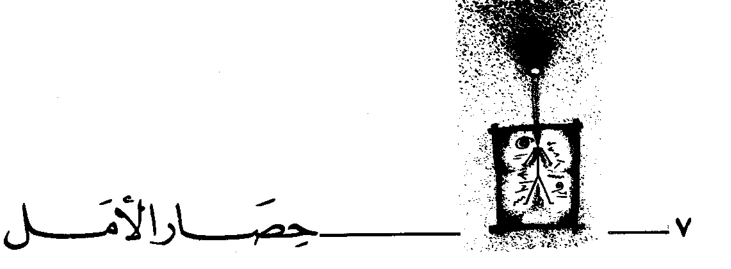
فاخرج وتجوّل متأملاً : تجد اخلاق الايمان قد مازجت الخضرة ، وان لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها ، ويقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافل ، وسبيل إنابة .

ومما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالاشجار ان الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة ، لكنها ليست قائمة ، بل اجتُثّتْ من فوق الارض ما لها من قرار .

فليس من شجر واقف إلا ويعظك بكلمة من الايمان .





٧ ـ حصار الأمل

هذه الحياة ، بجوانبها العديدة ، وتبدلات المجتمعات التي تحياها ، قد لا يفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع الى نظرة واقعية لها ، متسمة بالبساطة ، مستقرئة للمحسوس المشاهَد منها .

ولا ريبَ في أن تجاوز مجرد الاستقراء ، وفهم الأمور معلَّلة مسبَّبة ، هو الوضع الأمثل ، المؤدي الى الإيمان الأتم الأوفر ، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب ، ولذلك جاءت عقيدة الاسلام تُحلّل وتُعلّل ، ليحيا مَن حَيَّ عنْ بينة . ولذلك ايضاً حاولت الفلسفات أن تفهم محركات الحياة ، فقاربت كاقتراب سقراط من عقيدة التوحيد ، أو أَبعدت ، كبعد جمهور المحاولين .

وبتفسيرات مَن شَرَحَ الكمال العقيدي الاسلامي ، أو من خلال محاورات الفلاسفة في محاولاتهم الوصول الى المثالية : إتسع القول في القدر ، والجبر والاختيار ، وسر

تردد النفس بين التقوى والفجور ، وحكمة خلق الشيطان والقائه للنفوس حتى لتختار الضرر الواضح وتأتي بما لا يأتلف مع الفطرة ، وغَلَبَة أهل الشر احياناً مع كثرة افسادهم وإرهاقهم للناس ، وكثرة محن أهل الخير وصدود الناس عنهم مع عظيم بذلهم ونفعهم للناس ، وأمثال هذا .

ولكن حياة اليوم اكتنفها التعقيد المادي من كل أركانها ، وتركت كثيراً من المسلمين ـ كشأن أغلب الناس ـ في زحمة من المتطلبات والحوائج تسلبهم التفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه ويعللون .

ولذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع ، فضلاً عن أن يكون مفهوماً للجميع ، مع أن المسلم مطالب ومكلف ـ في الوقت نفسه ـ باداء الواجب المفروض عليه في التأثير الخيِّر في الحياة ، بالأمر بالمعروف ، والدعوة إليه ، والنهي عن المنكر ، ملزم به الزاماً ، مُضيّق عليه في الاعتذار إزاءه .

ومن هنا تفرض سرعة صراعنا الحاضر مع اشكال الكفر الجديدة أن نلجأ ، بسرعة توازيها ، الى بساطة النظرات الواقعية ، لاسعاف المسلم القائم على ثغور هذا الصراع بقناعة وشجاعة تدعانه يلج دروب البذل التي تفرضها واجبات رقابته على العالمين ، أمماً وأفراداً ، وأمره ونهيه ، مقوماً لهم ومُعَدلا .

ولن تجد الحركة الإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظر بسيط لحقيقة الحياة ، شامل في

رؤيته ، كما تكون إطلالتها على حقيقة الموت . هذه الحقيقة المستغنية عن الدليل والتحليل ، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء .

● **عظمة المشهود : دليل الغيب**

وذاك من كمال عقيدة الاسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها ، أنها وأَنهم في حرص على أن يسلك المتحيِّر أو المتردد الطريق الأدنى الى الإيمان .

والمثَل في ذلك كمثل الذي استغلقت عليه الغيوب التي أَخبر بها الأنبياء عليهم السلام ، من البعث والحساب ، والجنان والنيران ، فتمر به على سيرة المصطفى ﷺ ، تريه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريداً مكذَّبا ، وبين صدع المؤذنين بالتكبير قبل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كل روابي أرضين المدنيات ، فتجعل رؤية إعجاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكاد أن يكون رؤية لذلك الغيب ، وتكون قد جعلت الإيمان بالرسول ﷺ سبباً للايمان بالله ، ولا نعلم فقيهاً يمنع ذلك ، غير الباقلاني ، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسوله ﷺ ، وليس لمنعه وجه ظاهر .

هذا ، بَلْهَ عن امتلاء القرآن بنداءات بسيطة ودعوة الى تفكّر في خلق السماء والأرض يقود الى الإيمان بالله .

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الأسلام ، بما نوّعت خطابها لأصناف العقول ومقادير النباهة ، فمن أشكل

عليه التعليل : أدخَلَتْه من باب ما يمكن حِسّه ، وعوّضَت عن التعليل بتكرار التذكير .

والواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتْها عقيدتنا منذ أبعد الامس ، حين أطنبت في التذكير بالموت ، وانذر كِتابُها سكرةً لا بد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد .

ولهذا وجب على خطة الحركة الاسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أسسها ، وتأخذ بيد كل داعية ليلمس لمساً قريباً حقيقته وتفاهة الحياة ، فينطلق من بعدُ انطلاقته في البذل ، ويتخلص من ثِقلة الى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها .

● **لوحة من الفن الاسلامي**

ولئن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة ، وحلّقوا بهم حلقة ، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم ، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة الى الله خطة حصار الأجل للأماني الكواذب ، يذكرونهم إياه ، كما رسمه النبي ﷺ ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة ، ففتحت لهم ـ لما وعوا خطوطه ـ المدن .

وكان فيهم يومها : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فوصف ، فقال :

(خطّ النبي ﷺ خطاً مربعاً ، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخط خططاً صغاراً الى هذا الذي في الوسط ، من جانبه الذي في الوسط ، وقال :

هذا الانسان ، وهذا أجله محيط به ـ أو : قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج : أمله ، وهذه الخطط الصغار : الأَعْراض ، فإنْ اخطأه هذا : نَهَشَهُ هذا ، وانَ اخطأه هذا : نهشه هذا) [1] .

وكان فيهم أيضاً : أنس بن مالك رضي الله عنه ، فوصف ، فقال :

(خطَّ النبي ﷺ خطوطاً ، فقال : هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك اذ جاءه الخط الأقرب .) [2] .

وفي رواية : مثل ابن آدم جنبه تسع وتسعون مَنِيَّة ، إن أخطأته : وقع في الهَرَم .

واكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجريدي فريدة .

إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزواً فيه إلحاح . عدوى ، أو سرطان ، أو حريق ، أو غرق ، أو زلق ، أو سقوط ، أو اصطدام ، أو لدغة ، أو تسمم بطعام ، أو طلقة تائهة .

---

(١) (٢) صحيح البخاري ١١١/٨ .

فإذا نجا من كل ذلك : كان له في الهرم ، وضغط الدم ، وارتفاع نسبة السكر : تأديب أي تأديب .

فإن اطال النَفَس : اقتص منه الموت .

(قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم .) .

تعددت الأسباب ، والموت واحد ، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصاراً شديداً .

أمل ابيض وضّاء ، كلما برق : زهت في نظر صاحبه الأموال ، والحِسان ، والعطور ، والقصور ، والمناصب ، والشهادات ، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دعوته ، ويصد عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود ، ولا يعود انفه يشمّ رائحة شواء دعاة الاسلام في الصومال ، ولا نتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصية ، وتتناسى اذنه وقع احذية عساكر الهنادك في البنغال ...!

لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء انما يلفه محيط اسود حالك ، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجاً تدل عليه التقوى .

فهو تَرَقُّب جميل ، لكنه يتنغص .
وظل ظليل ...... لكنه يتقلص .
ومطامع وراء الاودية والمفاوز ، وليس هو لما قُدِرَ له بِمُجاوِز .
وانفاس قبل كل ذلك .... تُعَدُّ .
ورحاله .... تُشدّ .

وعاريته .... تُردّ .
والتراب من بَعْدُ ... ... ينتظر الخد .
فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي .
وعلى أَثَرِ مَن سَلَفَ ... ... يمشي مَنْ خلَف .
وما ثَمَّ إلاّ أمل مكذوب ... ... وأجل مكتوب .

● **رؤية تمتد**

و(إن هذا النظر ، الذي وراءه التذكر ، الذي وراءه التقوى ، التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفّيها أربع مرات حتى تعود بها الى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، وأخر وجودهـا التلاشي .) [1] .

و(إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعِدّاً لها ، فإن كان مُعِدّاً لها : عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها : كان عمره في حاضر مستمر ، كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه ، غير محاول في الليل أن يبعد الصبح ، ولا في الصبح أن يبعد الليل .) [2] .

وبمثل هذا النظر والترقب الذي اكْسبَهُ الانبياءُ عليهم السلام مَن قاتل معهم من الربّيين : صفت النفوس ، وثبتت

---

(١) (٢) وحي القلم للرافعي ١٩٨/٢ ، ٧٥/١ مع جمل سبقتهما للزمخشري وابن الجوزي .

بركيزة من الطمأنينة سكنت معها وهدأت ، فرأت حين زال الإضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية ، فزال ما هنالك من تطلّع زائد .

ثبات له من الرسوخ ازاء الأماني مثل الذي كان ما بين رؤية ابراهيم عليه السلام للأُفولِ ، فلم يحب الآفلين ، وبين بقية من حنيفيته ـ كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد ﷺ ـ أرَتْ أمية بن ابي الصلْت حقائق الحياة ، فكاد أن يسلم ، فصرخ فيما حوله من جاهلية :

اقترب الوعدُ ، والقلوب الى اللهو
وحب الحياة سائقُها
ما رغبةُ النفسِ في البقاء وأنْ
تحيا قليلاً والموت لاحِقُها ؟
امامها قائد اليه ، ويحـ
ـدوها حثيثاً اليه سائقُها
قد ايقنت انها تصير كما
كان يراها بالأمس خالقُها
وان ما جمّعت واعجبها
من عيشة مُرّة مفارقُها
مَن لم يَمُت عَبْطة يمت هَرَما
للموت كأسٌ والمرءُ ذائقُها

فكانت صرخاته في عكاظ إرهاصاً ينبي عن نبوة جديدة ،

أحيت لمّا جاءت سنن الترقب والنظر الذاكر ، فزهد أصحابٌ ورثوها بما هنالك ، فانقلبوا يصلحون للانسان الواهم ما أفسدته شهواته ، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي ، ويعاف الطعام ، ويقول :

(قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني : كُفن في بُردة ، إن غُطي رأسه : بدت رجلاه ، وان غطي رجلاه : بدا رأسه . ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا .) [1] .

● نسيان الموت أول الانحراف

وليس ذاك بكاء الأسى ، حَزَناً أَن لم يَرَ اخاه مصعباً مترفاً ، انما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنةً معجَّلة تمنعه الآجل ، كما أفصح ، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب ابطاله تباعاً ، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال ، ويخاف أن يتنافسوها ، فيتوقف نبض فتوح الهداية .

يشبه بكاؤه ذاك عَبْرة ظلّ يغص بها حَلْق أبي الدرداء مراراً وهو يقول : (ابكاني فراق الأحِبّة : محمد وحزبه .) [2] .

---

(١) صحيح البخاري ١٢١/٥ .

(٢) الزهد لابن المبارك /٨٤ .

يُعبّر بها عن وجله من جديد طرأ على سمت الجيل الثاني ، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق اخوة كانوا له سبب هداية وتثبيت ، وفهمهم وفهموه ، في تعامل مسترسل ، ما التالي لهم ـ مهما حرص ـ بقادر على أن يسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه . وكأنها حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغرباء ، لا يستطيعون لها وصفاً .

لكنه حزن المجاهد الفقيه ، ما كان ليهبط بأبي الدرداء الى حسرات تستهلك الهمّة ، بل أدى به الى صعود سُلّم التربية ، فاعتلى درج مسجد دمشق ، فقال :

(يا أهل دمشق :
ألا تسمعون من أخ لكم ناصح !

إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ، ويبنون شديداً ، ويأملون بعيداً ، فاصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .) [1] .

ولبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجمة المال ، ثم أورثَ المقال أهله ، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحها ، فيقول :

(إني لأجد في قلبي داء لا أجد له دواء . أجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً !) .

---

(١) الزهد لابن المبارك /٢٩١ .

فتقول : (اطلع في القبور ، واشهد الموتى .)[1] .

● إحياء الأمة بذكر الموت .

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم ، لولا السم .

فقد واصَلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة ، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة ، فنفضت رانها ، ثم انثنى ، فحرك الى الشهادة حَنانها .

وما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق ، ليجدد الوعظ القديم ، ويقرر لهم :

(إن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع قليلاً بكثير ، ونافذاً بباق .) .

حتى اذا ايقنوا صَواب الصفقة : راح يريهم من يومياتهم وواقعهم ، بعين التأمل ، ما لا تراه عين الغفلة ، ويقول لهم :

(ألا ترون في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، وكذلك حتى تُردّوا الى خير الوارثين ؟

ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيّعون غادياً الى الله ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجلُه ، وطُويَ عملُه ، ثم تضعونه في صُدع من الأرض في بطن لحد ، ثم تَدَعُونَه غير موَسَّد ولا ممهّد ، قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ،

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٧١/٢ .

ووُجّه للحساب ، غنياً عما ترك ، فقيراً الى ما قدَّم ؟) .

ولربما أجلس أحدهم أمامه وعلَّمه ، تعليمه عنبسة بن سعيد : (يا عنبسة :

اكثر ذكر الموت ، فإنك لا تكون في ضيق من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك . ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلا ضيّق ذلك عليك .) [1] .

حتى اذا ربّى حاشيته ، وخلصوا من وهم الأمل نجيّاً : راح ينشر مذهبه في الأمصار ، فيرسل على أعيانها ، فيأتونه ، فيفشي لهم سِرّ القبر ، وما هو عند أولي الالباب بسِرّ .

قال التابعي محمد بن كعب القرظي رحمه الله :

(لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعث اليّ وأنا بالمدينة ، فقدمت عليه ، فلما دخلت جعلت أنظر اليه نظراً لا أصرف بصري عنه ، متعجباً ، فقال : يا ابن كعب : انك لتنظر إليّ نظراً ما كنتَ تنظره !

قلتُ : متعجباً .

قال : ما أعجبك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين : اعجبني ما حال من لونك ، ونَحَلَ من جسمك ، ونفى من شَعرك .

فقال : كيف لو رأيتني بعد ثلاثة ، وقد دلّيتُ في حفرتي ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٢/٥ .

وسالت حدقتي على وجنتي ، وسال منخري صديداً ودوداً ؟)[1] .

فشاع خبره في الآفاق ، حتى اذا أرسل الى أعيان الكوفة : بادروه مبادرة ، وجلبوا شاعرهم أعشى همدان معهم ، يعلن له قناعتهم وبراءتهم من أمل يطارده عمر ، قد عرفوا جده في إجلائه عن دار الإسلام .

وينطلق الأعشى بين يدي عمر ... ...

وبينما المرءُ أمسى ناعِماً جَذِلا
في أهلِه معجباً بالعيش ذا أَنَقِ
غِرّاً ، أتيحَ له مِن حَيْنِهِ عَرَض
فَمَا تَلَبّثَ حتى ماتَ كالصَّعِقِ
ثُمَّتَ أضحى ضحى مِن غِبِّ ثالثةٍ
مُقَنَّعاً غير ذي روحٍ ولا رَمَقِ
يُبكي عليه ، وأَدْنَوهُ لمُظْلِمَةٍ
تُعْلى جوانبها بالتُرب والفِلَقِ
فما تَزَوَّدَ مما كان يَجمعُهُ
إلا حَنوطاً وما واراهُ مِن خِرَقِ
وغيرُ نَفْحَةِ أعوادٍ تُشَبُّ له
وقلَّ ذلك من زادٍ لمُنْطلِقِ[2]

---

(١) الزهد للإمام أحمد /٢٩٥ .

(٢) الأغاني ٥٧٠/٦ ، والحنوط هو الطيب الذي يطيّب به الميت ، والاعواد : أعواد البخور .

فتنهمر هاطلة دموع عمر ، وتختلط بأصوات نشغاته ، ليتجاوز تَرادّ صَداها دهوراً تتعاقب ، يقود المربين المسلمين .

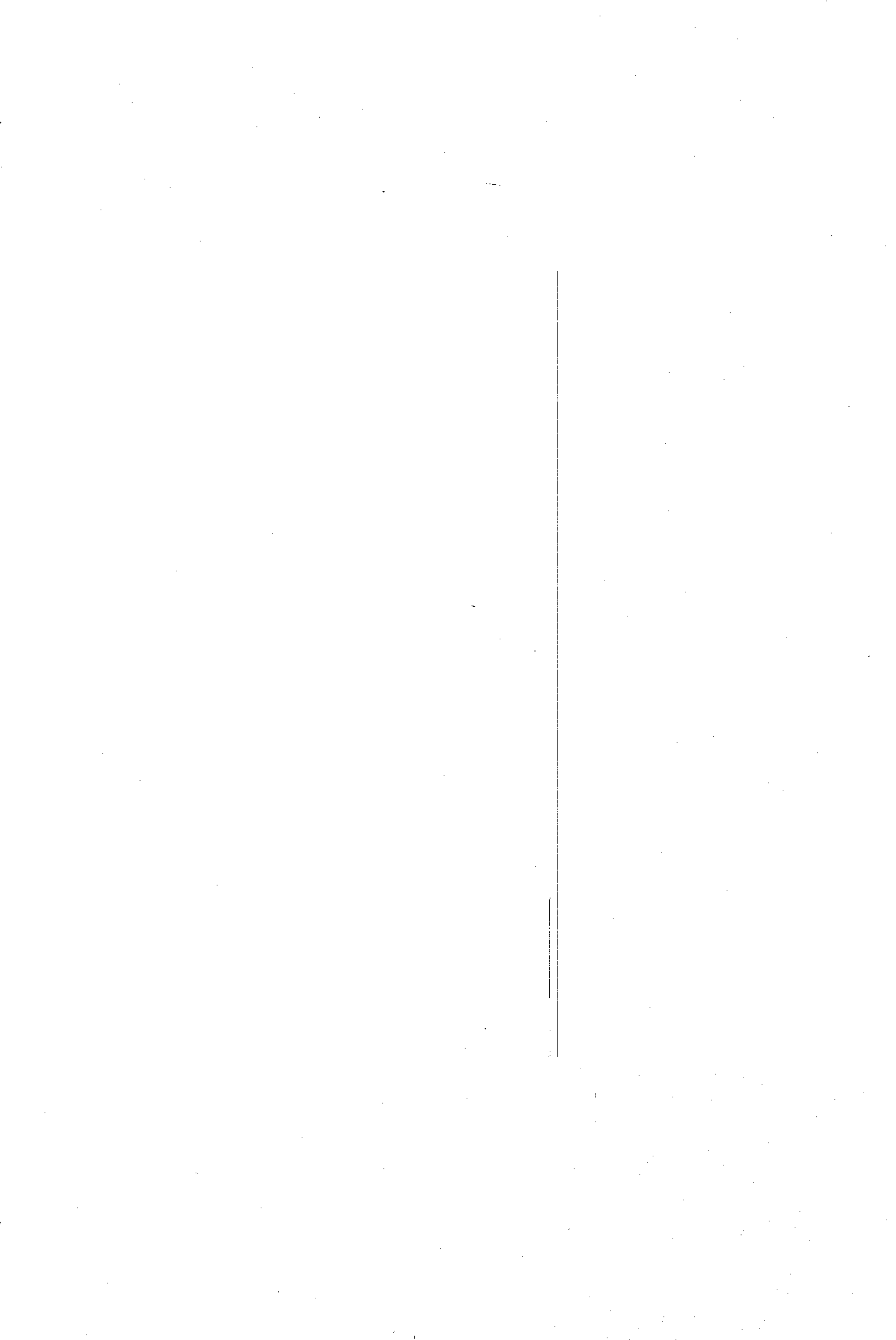
● **عودة الى الرشد .**

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس للحركة الاسلامية المعاصرة ، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي الدرداء ، أو بكاء سلمان الفارسي ، في رواية اخرى ، حذراً وغربة ، حين افتقدا ، رضي الله عنهما ، حزب محمد ﷺ ، فإن بكانا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتهما ، ولا بد لنا ـ مع بداية مرحلة جديدة تُرشِح دعوتنا لملْ فراغٍ تركه فشل التطرفات القومية والشيوعية ـ من ارتقاء درجات الاستدراك التربوي ، هامسين لكل داعية بمواعظ عمر ، لتعود لنفسه فتوتها وإقدامها ، وتطلّعها الأخروي ، فإنه قد طال التجوال في البطالة ، ولربما حيَّر ، وامتد الركون الى الاغترار وكأنه قد غيّر .

وكأنَّ بالداعِ قــد يبكـي	عليــــه اقــربــوهُ
وكأن القوم قــــد قـــا	مــوا فقالوا : ادركوهُ
سائلــــوه ، كلمــــوهُ	حــرِّكــوه ، لقّنــوهُ
حرِّفـــوه ، وجِّهــوهُ	مــدّدوه ، غمضـــوهُ
عجِّلـــوه لرحيـــلٍ	عجّلــــوا لا تحبسـوهُ
ارفعوه ، غســــلوهُ	كفّنـــوه ، حنّطـــوهُ
فاذا مـا لُــــفَّ في إلا	كفان قالوا : فاحملـــوهُ

أخرجوه فوق اعـــوا		دِ المنايا ، شيّعـــوه
فإذا صلَّــوا عليـه		قيـل : هاتــوا واقبروهُ
فاذا مــا استودعـــوه		الأرض رهناً تركـــوهُ
خلّفــوه تحتَ رمسٍ		أوْقَـــروهُ ، أثقلــوهُ
أَبعَـــدوهُ ، أَسْحَقوه		أوحَـــدوه ، افردوهُ
ودَّعـــوه ، فارقــوه		اسلَمـــوه ، خلَّفــوه
وانثنـــوا عنه وخــلّـ		ـوه كأن لم يعرفــوهُ (1)

(1) ومن الممكن أيضاً أن تقرأ القافية ساكنة .



٨ ـــــ تِلاَلُنَا الهَامِدَة

لئن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فراقه حزب محمد ﷺ باكياً ، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً ، ليقول :

(اضحكني :

مؤمل دنيا ، والموت يطلبه .

وغافل ، ليس بمغفول عنه .

وضاحك بملء فيه ولا يدري أرضى الله أم أسخطه .)[1]

وانما هو ضحك التعجب من صورة حياتية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس ، يرى خلالها أنماطاً من الغفلة تحرف شدةُ طمع تصاحبها بعضَ الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرَهم من حولهم ، وما لهم أدنى ضمانٍ لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك .

---

(١) الزهد لابن المبارك /٨٤/٥٥٤ .

فالناس في غَفَـــــــلاتهم
ورَحـــــــى المنيّــة تَطْحــنُ

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة ، لكنها سرعان ما تتحول الى شفقة ورحمة تأبى الا أن تصدم الغافل صدمة ايقاظ تخرجه عن سكونه .

رحمة حركت أبا الدرداء برفق ، فأتى الى هذا الذي أضحكه ، فنقر بأصبعه على كتفه ، فالتفت ، فهمس في أذنه أن :

(ويحك ! !

كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربعُ أذرع من الأرض ؟) [1] .

وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق ، إن كان انخلع من غفلته أم سَدر فيها ، ولكنا ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية ، وان ما ذرعه لم تزده الايام سعة وطولاً ، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد ، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد .

● يوم الحصاد :

مشهدها الأول : يوم الحصاد : يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع .

---

(١) الزهد لابن المبارك/٨٤/٥٥٤ .

وليس في التشبيه مفارقة ، فان حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد ، من بين موت شهادة ظاهر نفعه ، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار وادكار .

وذلك ما صوره الشاعر حين خاطبك فقال :

ما أنت الا كزرع عنـــد خُضرتـــه
بكلِ شيء مـــن الآفـــات مقصـــودُ
فان سَلِمتَ مـــن الآفـــات أجمعهـــا
فأنت عنـــد كمـــال الامـــر محصودُ

أو قد يسمى هذا اليوم : يوم الصراخ ، وذاك حين يعرق الجبين ، ويتتابع الانين ، وتكون الغرغرة ، وتبرد الأعضاء ، وتستبد السكرات ، فيفتضح الضعف ، فيعلو الصراخ .

باكيات عليك يندبـــن شَجْـــوا
خافقاتِ القلــــــوب والأكبادِ
يتجـــاوبن بالـرنيـن ويذرفـن
دموعاً تفيض فيض المــــــزادِ

فيأتي من يحبسْهن جانباً ، ليغسلوك على عجل .

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء ، فينادي : الا إن وراءنا اشغالنا فاستعجلوا ! !

كما هو الخلق القديم في الغاسلين ، منذ عصر من قال :

كأن لم أكن اذ احتث غاسلـــي
وأحكم درجـي في ثياب بيـــاض

وما هي الا أذرع أربعة من القماش الرخيص ، كتلك من الأرض السبخة ، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب .

فلا تنس يومـاً تسجَّى على
سريرك فـوق رقـاب النَفَر

فان كنت صالحاً : استبشرت تلك الساعة ، ولبثت تصيح طرباً : قدّموني ، قدموني ، تصدق ما أخبر به النبي ﷺ حين قال :

(**إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني . وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها : يا ويلها ! أين يذهبون بها .**

يسمع صوتها كل شيء إلا الانسان ، ولو سمع الانسان لصعق .)[1]

● ثم يوم الرقاد

وتنتقل القصة الى مشهد ثان يسمى : يوم الرقاد الطويل ، يبدأ بملكين يفتِنان الميت ، ذكر خبرهما النبي ﷺ فقال :

(أوحي اليّ أنكم تُفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال .

فأما المؤمن أو المسلم فيقول : محمد جاءنا بالبينات ، فأجبنا وآمنا .

---

(١) صحيح البخاري ١٠٣/٢ ، ١١٦/٩ .

فيقال : نَم صالحاً ، علمنا أنك موقن .

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .)[1] .

وذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر ، أنَّ :

(العبد اذا وضع في قبره وتولّي وذهب أصحابه ، حتى انه ليسمع قرْع نعالهم ، أتاه ملكان فأقعداه .

فيقولان له : ماكنت تقول في هذا الرجل ، محمد ﷺ ؟

فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .

فيقال : أنظر الى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة .

قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً .

وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس .

فيقال : لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ .

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين .) [2] .

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة ، ويهجم هجومه ، فيستسلم الرجل ، ويذعن ، ويأخذ يقول ، كأنه يستزيد :

---

(١) صحيح البخاري ١٠٣/٢ ، ١١٦/٩ .

(٢) صحيح البخاري ١٠٨/٢ .

ضعوا خدّي علـــى لحـدي ضعوه

ومِن عَفْر التـــراب فوسـّـدوه

وشُقّـــوا عنــه أكفانـــاً رِقاقـــاً

وفي الرمْس البعيـــد فغيّبــوه

فلو أبصرتمـــوهُ اذا تقضّـــت

صبيحةَ ثالثٍ : انكرتمـــوه

وقد مالـــت نواظـــرُ مقلتيـــه

على وَجَناتـــه ، فرفضتمـــوه

فهنالك يكون السكون ، حيث تصفر الريح على تلال هامدة واطئة ، فيصل صفيرُها الى آذان أمهاتٍ ثكالى يخرجن ببلاهة يقودهن الصفير الى قبور أبنائهن ، لتسأل كل واحدة منهن ابنها :

بأي خديـــك تبـدّى البلـى

وأي عينيـــك إذاً ســـالا ؟

فيجيبهن صوت بعيد ، من حيث القبر الأخير المنزوي :

لم تبق غير جماجـــم عَرِيـــتْ

بيضٌ تلوح ، وأعظـــمٌ نَخِـره

ويثني آخر :

لا يدفعون هَواماً عـــن وجوههم

كأنهم خشـــب بالقـاع منجَـدِلُ

أو يرد صوت ثالث :

هجودٌ ولاغيـــر التراب حَشِيّـــة
لجنبٍ ، ولا غيـــر القبـــور قِبـابُ

أو يخبرهن رابع :

قد أصبحـــوا فـــي بـــــــــرزخ
ومحلـــــــــة متراخيـــــــــه
ما بينهـــــــــم متفـــاوت
وقبـــــــــورهم متدانيـــــه

فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل موحشين ، وذوي محلة متشاسعين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الاخوان . قد اقتربوا في المنازل ، وتشاغلوا عـن التواصل ، حتى طحنهم بكَلْكَلِهِ البِلى ، وأكلهم الثرىٰ [1] .

وبينما هم كذلك اذ جاءهم من ليس هو بفضولي ، وعساه عند عمر بن العزيز أو عنبسة أو القرظي يتدرب ، فيسألهم :

أين الوجوه التي كانـــــت محجّبـــة
من دونها تُضربُ الأستـــار والكُلَـلُ

ويميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هم بقادرين عليه ، فتنوب عنهم التلة الصغيرة تجيب ..

---

(١) أسطر لبعض الزهاد .

وأفصحَ القبرُ عنهم حيـن ساءلَهـم
تلك الوجوهُ عليها الدودُ تقتتـــلُ

قد طالَ ما أكلوا دهراً ومـا نعِموا
فأصبحوا بعد طولِ الأكلِ قدْ أُكلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة ، خفيض ، ودمع على الخدين يفيضُ ، يودع ويندب ويقول :

أهل القبــور أحبتِـي
بعـد الجَذالـة والســرورْ
بعـــد الغَضــارة والنضـا
رة والتنعّــم والحُبـــورْ
بعـــد الحِســان المؤنسا
ت وبعـــد ربّــات الخــدورْ
أصبحتـــمُ تحــتَ الثرى
بيـــن الصفائـح والصخورْ

● حساب وكتاب

فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى : يوم البعث .

يوم انشقاقُ الأرض عن اهل البلى
فيهـا ، ويبدو السخــط والرضوانُ

يوم القيامة ، يوم يُظلم ظلـــم
الظالمين ويشرق الاحـــسانُ

(أنْ تقولَ نفسٌ : يا حسرتا علىٰ ما فرطت في جنب الله .) وتنادي اخرى : (هل الى مَرَدٍّ من سبيل) ؟

وتستغيث أخرى : (يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) .

فهنالك ثالِثة يكون الوجل :

هناك ان كنتَ قدَّمت مُدخرا
تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسَنِ
وتُنشر الصحْفُ فيها كل مُحْتقبٍ
من المخازي وما قدّمت من حَسَنِ
قد كنتَ تنسى وتلكَ الصحفُ محصية
ما كنتَ تأتي ، ولم تَظلِم ولم تَخُنِ

فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عِبْرة ، تَستخرِج من عينه وقلبه عَبرة ، تنطق لسانَه رهبة وأسفاً ، ليدندن في الليالي :

واحَسْرتي ، واشِقوتي
من يوم نشر كتابيه
وأطولَ حُزني إن أكن
أوتيتُه بشماليه
وإذا سُئلت عن الخَطأ
ماذا يكون جوابيه ؟

واحَــــرَّ قلبـي أن يكـونَ
مــع القلـــوب القاسيــــه
كـــلا ولا قدمتُ لـــــي
عملا ليــــوم حسابيـــــه
بل إننــــــي لشقاوتـــي
وقساوتـــي وعذابيـــــه :
بارزتُ بالـــــزلات فـي
أيام دهــــــــرٍ خاليـــــه
من ليس يخفــى عنه مــن
قُبْح المعاصـــي خافيــــــه

● **ما بعد هذا الا التشمير**

فأما صاحب القلب الحي فنقُصّ له قصة الأيام الثلاثة هذه . وأما أموات القلوب فذرهم في ركستهم يتخبطون .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمـل ، فسـوف يعلمون) . تَمتّعَ آكلةِ الخَضِرَةِ التي حدثنا عنها رسول الله ﷺ :

(آكِلة الخَضِرَة أكلت .

حتى اذا امتَدت خاصِرتاها : استقبلت الشمسَ .

فاجترت ، وثَلطت ، وبالت .

ثم عادت فأكلت .)

هكذا كالخرفان تماماً ، يأكلون وينامون ، فيتغوطون ،

فيعودون الى الأكل ، ولا شيء آخر .

تعست حياتهم ! !

فتدبر أمرك أيها المسلم وتأمل . وقف ولا تعجل .

فإنك لممتحَن ، وبكسبك مرتَهَن .

وإنه :

سيأتيك يوم لست فيه بمكـــــــرَم
بأكثر من حَثْو التراب عليكـــا

بل يرى أصحابك ذلك غاية الاكرام لك .

يقولون : كان رحمه الله صديقاً لنا ، ولا بد أن نكرمه ، وواجب أن نحضر لنحثو التراب عليه .

وكم قـــد رأينا فتى ماجـــــداً
تفرّع في أسرة مـــــــا جـــــده
رماه الزمان بسهم الـــــــردى
فأصبح في التلة الهامـــــــــدة

فاذكر ، واتعظ ، ولا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل ، عَسَيتَ بفضل الله تنجو ، وتفوز ببعض ما المؤمن يرجو ...

٩ ـــــــــــــــ مدَارسُ الموَت

خط رسول الله ﷺ خطوطه ، فاستيأس الأمل ، فبات الأصحاب يحبون أحب الأمرين الى الله : حياتهم أو الموت .

إلا الفاروق عمر رضي الله عنه ، فإنه جمع بين هجر الأمل ، والجزع من الموت وكراهته ، فاتحاً بجمعه هذين النقيضين باباً يلج الموفق منه الى زيادة في فقه الدعوة .

وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها ، فثعب جرحه دماً كثيراً أخرجه إلى جَزَعٍ وافقَ دخولَ عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، عليه ، فَفَغَر فاه مستغرباً ، فقال عمر :

(أما ما ترى من جزعي ، فهو من أجلك وأجل أصحابك .) [1] .

(١) صحيح البخاري ١٦/٥ .

وبهذه الحروف اختتم رضي الله عنه سيرة أتعبت كل دعاة الاسلام من بعده .

فالحياة يطلبها الغيور طلباً ، ويجزع لورود الموت جزعاً ، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمور دعوة الإسلام .

وغدا هذا المفهوم ، بهذا المقدار ، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية ، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها ايجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص الى مجرد كبت الآمال .

● مدرسة الكوفة تواصل الذكرى .

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر ـ من جانب ـ للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب وسهر وتفكّر ، فتأهبوا للاقتداء ، فألهاهم عبد الله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه ، وأذهلهم ، فإن تشميراً رآه الناس في بداية خلافة علي ، رضي الله عنه ، كان بحاجة ـ من جانب آخر ـ بعد ذاك الذهول ، إلى كلمات أخرى تعظهم ، وتعيب عليهم أملاً وجد له اثناء سنوات الفتنة مجال نمو ، بردت معه همم المقتدين .

ومن هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت ، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته ، ويصارحهم ، ويقول :

(انما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة ، وإن اتباع الهوى يصد عن الحق .)[1] .

وتنتدب جمهرة من فقهاء اصحابه نفسها لمعاونته ، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العجلي بعده ، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها :

المرء توّاقٌ الى ما لم ينــــل
والموت يتلـــو ، ويلهيـــه الأمل

فيتلوه سيد زهاد التابعين : أُويس بن عامر القرني ، فيقول :

(يا أهل الكوفة : توسّدوا الموت اذا نمتم ، واجعلوه نصب اعينكم اذا قمتم) .

حتى اذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت : استمرت ثلة من أصحابه على سمته في الوعظ ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم :

(أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله .)[2]

ويحفر له قبراً ، ويأخذ ينزل فيه كل يوم ويتمدد ، ثم يقوم يذكر لهم مشاعره لما يكون بقعره .

ويذكر سعيد بن جبير لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه ، فيقول :

---

(١) الزهد لابن المبارك /٨٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ١٨٤/٦ .

(لو فارق ذكر الموت قلبي : خشيت أن يفسد عَليَّ قلبي .) [1] .

وكل هؤلاء : سعيد ، والربيع ، واويس ، رحمهم الله ، والأغلب رضي الله عنه ، من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه ، فلما ماتوا : اورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سمتها ، فكان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر ويسألهم :

(كم من مستقبِل يوماً لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه . لو تنظرون الى الأجل ومسيره ، لأبغضتم الأمل وغروره .) [2] .

فإذا نزل : صعد عمر بن ذر ، فخطبهم :

(أما الموت فقد شَهَرَ لكم ،فانتم تنظرون اليه في كل يوم وليلة ، من بين منقول عزيز على أهله ،كريم في عشيرته ، مطاع في قومه ، الى حفرة يابسة واحجار صُم ، ليس يقدر له الأهلون على وِساد إلا خالطه فيه الهوام ، فوساده يومئذ عمله . ومن بين مغموم غريب ، قد كثر في الدنيا همّه ، وطال فيها سعيه ، وتعب فيها بدنه ، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته ، فأخذه بغتة . ومن بين صبي مرضَع ، ومريض موجَع ، ورهن بالشر مُولَع ، وكلهم بسهم الموت يُقرع .)

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل /٣٧١ .

(٢) الزهد لابن المبارك /٤ .

فلما مات هؤلاء النفر ، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري : تولاها طريقة ، واتخذ الموت نشيداً ، حتى قال أحد تلامذته :

(ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذَكَرَ الموت ، وما رأيت أحداً اكثر ذكراً للموت منه .)[٤] .

وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى لمدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دَورها في رقابة سواء سبيل أمة الإيمان ، وحفظه من الانحراف وطغيان الآمال ، وشَرَّفها ، فتمثلت بها بقية نهي عن الفساد ، تكثر حيناً ، أو تقل من دون انقراض ، ليست دعوة الاسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها ، وما وراثتنا لها إلا وراثة قربى في النسب ، واشتراك في المورد .

● فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبد العزيز في اواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقيبة على سير القرون ، اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون ابن عبد الله ، وعمر بن ذر ، واعشى همدان الشاعر ، الآنف ذكرهم ، اتصالاً اعتيادياً كما هو شأن العلم في تقلبه في البلاد ، وشأن البقية الناهية في تقلبها عبر القرون ، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة اعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها :

---

(٤) تاريخ بغداد ١٥٧/٩ .

* اعجاز اكسبه اياها موضع الخلافة العالي ، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع ، فتسارع الاصلاح ، فاختصر الزمان ، فكانت هنيهة قصيرة أثّرت دهوراً طويلة .

* واعجاز ، بلاغي آخر ، وليد تفكر عمر ، وربيب نغمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه ، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين ، وبها راد لقرون تليه خبر موت أعلمه حدسه انها ستكون عنه من اللاهين ، فحدثها حديث صدق عن :

(قبور خرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصّت الدم ، وأكلت اللحم .

تُرىٰ : ما صنعت بهم الديدان ؟

مَحَتِ الألوان ، وعفرت الوجوه ، وكسرت الفِقار ، وأبانت الأعضاء ، ومزقت الأشلاء .

تُرىٰ : أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟

اليس هم في مدلهمة ظلماء ؟

كم من ناعم وناعمة اصبحوا وجوههم بالية ، واجسادهم عن اعناقهم نائية ، قد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً ، حتى عادت العظام رميماً .

قد فارقوا الحدائق ، فصاروا بعد السعة الى المضائق .) .

ثم راح ينادي حتى صحل صوته :

(يا ساكن القبر غداً ، ما الذي غرّك من الدنيا ؟
اين دارك الفيحاء ؟
واين رقاق ثيابك ؟
ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى ، وبأي خديك يبدأ البلى ؟)

وبمثل هذا : استأسر فقهاء الأمصار لعمر ، فجمع قلوبهم حوله ، وجعلهم له أعواناً في تعميم رشده ، واخرجهم الى مشاركة جماعية في تعليم الأمة وتربيتها ، متناسقة مع اسلوبه ، أغنت حكمه عن سيف وحساب ، واستثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس ، قدم لها منه القيادة ، فقدمت له منها المتابعة .

● مدرسة البصرة تؤيد .

ولئن اسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر ، في أرهاط من الشاميين والمدنيين ، فإن الحسن البصري ، عبر سيادته الجيل الأوسط من التابعين طراً ، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية ، قد انزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر ، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في اعادة رسم خطوط حصار الأمل ، ورواية قصة الرقاد الطويل ، وتأكيد مذهب عمر وترويجه ، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية ، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم ، فيجد المسلم المرابط في أقصى الثغور في شدة نبراتها حماسة

يهتز بها للشهادة قلبه ، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف ، والساذج المزارع ، والتاجر الساعي .

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهماً لدى امام البصرة ، وبدأت الآمال تقصر بمآل الى الردى يصوره الحَسَن ، ويحذرها اهوالاً تستقبلها ليست سكرات الموت الا بواكر حسابها وعتَب ابوابها ، فراح ينادي :

(المبادرة ، المبادرة .
فإنما هي الأنفاس لو حبست : انقطعت عنكم اعمالكم.
انكم أصبحتم في أَجَل منقوص ، والعمل محفوظ ، والموت ـ والله ـ في رقابكم ، والنار بين أيديكم ، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة .

لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحا .
وان أمراً هذا الموت آخره ، لحقيق أن يُزهد في أوله .
وان أمراً هذا الموت أوله ، لحقيق أن يُخاف آخره .) [1]

● ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزاناً ايمانياً يقدم له الواقع المرئي كفاية من دلائل الاقناع ، ربما نشتق له اسم : (ترجيح التخويف) ، ساقه في صورة خطاب ، فقال :

(إنك والله لأن تصحب اقواماً يخوفونك حتى تدرك

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل /٢٨٥ ومصادر أخرى .

أمناً ، خير لك من أن تصحب اقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .) [١] .

وهو ميزان يمثل بعضاً مما أضافه الحسن الى فقه الدعوة .

فالخوف العاجل عنده ، المؤدي الى التقوى ، المؤدية الى أمن آجل في ظلال الجنان : خير من مدّ عريض للنظر الى صفات الله سبحانه في الرحمة واللطف والغفران .

وكلاً من الحالتين تُراد ، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة ، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء اغلقتها عليهم شدة الخشية ، ولكن هذا المعدن فريد ، والغرور يلف الجمهرة العظمى ، وما من دواء له إلا الاخافة بقصة التلال الهامدة .

وفي التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي :

(إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير أعمالهم : امرناهم بذكر الموت والقبور والأخرة .

فأما اذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه ، وتجري على لسانه ، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد الا انقطاعه بالمرة .

بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ، الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ، ليمتد

---

(١) الزهد لابن المبارك /١٠٢ .

نَفَس أمله قليلاً ، فيصنّف ، ويعمل اعمال خير .) [1] .

● **مدرسة بغداد تجنح للبساطة**

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويراً مهماً الى فقه الزهد وكبت الآمال .، يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بشر بن الحارث الحافي لما أتاه آت وطلب منه الموعظة فقال له :

(انّ في هذه الدار نملة تجمع الحَبَّ في الصيف ، فتأكله في الشتاء ، فلما كان يومٌ : اخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور ، فأخذها والحبّة ، فلا ما جمعت أكلت ، ولا ما أمَّلت نالت .) [2]

هذه هي الحياة عند بشر .

انسان يجمع ، فيأتيه الموت ، فيأخذه وما جمع .

هكذا ، بلا أبيات شعر ، ولا الوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ .

لأولي الألباب كفاية بيوميات العصفور والنمل .

ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الامام أحمد زمام التربية ، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر ، فسكت ، حتى أن الكتب تكاد أن لا تورد له في المواعظ قولاً ، وعوّض تلامذته واجيال الأمة عن ذلك بوجه معبّر

---

(١) صيد الخاطر /١٥٨ طبعة الغزالي .

(٢) تاريخ بغداد ٣٢١/٣ .

كأنه يطلع الى القيامة ، وصبر على العذاب والاغراء ثبتت به الأمة ازاء دعاية المبتدعة ، وسيرة في التعفف والتقلل تستحي منها نوايا الإثراء .

فلما مات سنة احدى وأربعين ومائتين ، وانتقل شيخ البخاري الحسن بن عبد العزيز الجروي من مصر الى بغداد ، وسكنها ، وصار في عداد البغداديين : رأى ضرورة استمرار القدوة الصامتة ، فلم يأخذ من إرث أبيه شيئاً ، لشبهة خالطته ، وقال :

(من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع .)[1] .

قال صاحب تاريخ تنيس :

(وكان أبوه ملكاً على تنيس ، ثم أخوه علي ، ولم يقبل الحسن من إرث ابيه شيئاً ، وكان يُقرن بقارون في اليسار.)[2]

● **التربية بالاعتراف**

وطفق المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية :

فمن حاز مرتبة أحمد وزهده وورعه وحياة قلبه : قلّده في سكوته ، وترك حاله تخبر الأبصار .

ومن لم يحز مثل سمو أحمد ، ولبث دون ذلك : سلك

---

(١) طبقات الحنابلة ١٣٥/١ .

(٢) تهذيب التهذيب ٢٩٢/٢ .

طريقة الاعتراف ، فيستفزُّ الاسماع ، كما استفزها الخليفة العباسي الراضي بالله ، لما جمع ببغداد الغافلين ، وحاول من بعد المتوكل أن يتشبه بعلي وعمر بن عبد العزيز ويقلد طريقتهما ، فراح ينشد لهم من نظمه :

كل صفو الى كَدَر
كل أمنٍ الى حَذَرْ
ومصير الشباب للمو
ت فيه أو الكِبَرْ
ايها الآمل الذي
تاه في لُجّة الغَرَرْ
اين مَن كان قبلنا
دَرَسَ الشخصُ والأَثَرْ
سيردُ المعارَ مَن
عمرُه كله خَطَرْ
رَبّ اني ذخرت عنـ
ـدك ارجوك مُدّخرْ
إنني مؤمن بما
بَيّن الوحي في السوَرْ
واعترافي بترك نفـ
ـعي وايثاري الضَررْ

رب فاغفــــر لـــــي الخطيـ
ـئة يـــــا خَيـرَ مَـن غَفَـرْ[1]

أو كما استفزها بالأندلس آخر ، حين راح يعترف :

الى كـــم اقولُ ولا افعـــــلُ
وكم ذا احـــوم ولا أَنـــزِلُ
وازجر عينـــي فـــلا ترعوي
وانصـــح نفسي فـــلا تَقْبلُ
وكـــم ذا تعلّل لـــي ، ويحَهـا
بِعَلَّ وسوف وكـــــم تمطلُ ؟
وكــــم ذا أُؤمـل طول البقـــا
واغفُـــــل والموت لا يغفـــلُ ؟
وفي كـــل يومٍ يُنـــادي بنـــا
منادي الرحيل : ألا فارحلــوا
كأن بـــي وشيكاً الى مصرعـــي
يُساقُ بنعشـي ولا أُمهــــــلُ[2]

● وبعد ...

وبعد يا داعية الاسلام ..

إنَّ من جَدّ وجد ، وليس من سَهر كمن رقد.

فلا تكن ممن تضمّه الكتائب ، وقلبه عن المشاركة غائب.

وهذا الموت منك قيد شِبر الشابر .

---

(١) تاريخ بغداد ١٤٤/٢ .

(٢) نفح الطيب ٢٧٥/٤ .

وهذا دبيب الليالي يُسارق نفسك ساعاتها .

وان سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، وانما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام ، ومدرسة إمام البصرة الحَسَن .

فانظر لنفسك .

واغتنم وقتك .

(فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والحظر عظيم ، والناقد بصير .) [1] .

وفقنا الله وإياك .

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي /١٦ .

١٠ ــــــــــــــــ لَا .. يَاقيودَ الأرض

لئن كان الدعاة الى الله قد فقهوا طريق الاستدراك ، ورفضوا الانصياع للفساد الذي استشرى ، وتمردوا على عملية الترويض ، وبدأوا جهود تثبيت وتربية لأولي الفطر الصحيحة ، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين ويتأوه ، ولا يعدو ابداء الحزن ، وقبع في بيته أو مسجده ، يلفه اليأس ، تاركاً دعاة الاسلام وحدهم في المعركة ، يظن انه بحزنه قد أبرأ ذمته ، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب .

وليس الأمر كما ظن وأن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر ، فإن المسلم الذي يبغي درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين ، لكنه يترك بيته وراءه ظهرياً ، ويتصدى للناس ، واعظاً وناصحاً ومربياً ، وخائضاً بهم دروب الجهاد .

قال ابن تيمية رحمه الله :

(قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ،

فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة في دينه ، وعلى مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر ، وتوابع ذلك ، ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة ؛ نهي عنه ، والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه .) [1]

فافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك ومن امثالك .

وحولك من يعمل ويناديك ......

ايها المشدود في تيه الأماني
خفف الآهات دع عنك التواني
لا تبالي إن بغت كف الزمان
واعتصم بالله ذا اسمى وافضل
انت تدري ايها الحيران عنّا
كيف فوق الشمس أزماناً حَللنا
ايها المذهول لا تيأس فإنـا :
لبناء الأمة العصماء نعمـــل [2]

فكن مع العاملين ايها المبهور .

انك ان كنت تعرف انا خير من يعمل ، واطهر مــن يتصدى ، فلم تهرب منا ؟

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٧ .

(٢) لمحمود آل جعفر في حنين الى الفجر/١٤٠ .

(ان الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل ـ بل لا تخدشها ـ ، وهي لا بأس بها لكنهـا تنقلب الى أمر بالغ الخطورة اذا لـم يعقبها عمل ايجابي مثمر ، اذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة ، ومـن ثم الركون اليها ، وعلى أحسن الفروض : استمرار هذه النقمة ، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه يؤدي الى شلل الحركة . وليس افضل لقوى الباطل من هـذا الوضع)[1] .

وانما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة ، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق آخر الزمن العباسي ، الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله ، فكان ينادي أهل بغداد بصوته الهادر أن :

(سيروا مع الهمم العالية)[2] .

لا تتواروا ولا تنسحبوا ، بل سيروا مع الهمم العالية .

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد فـي خارطتنا .

أما الجبن ، والانزواء ، والتأوه ، فصحارى مهلكة .؟

وجرب غيرك الأعوان ، واعطاك النتيجة ، فقال :

لي معينان : همة واعتزام .

---

(١) لصلاح الدين مجيد في مجلة التربية الاسلامية ٥/٥٩٤ .

(٢) الفتح الرباني /٢٩٨ .

لم يجد غيرهما ، وخانته بقية الأعوان .

وعونك المخلص ما أوصلك الى اللذة الصادقة في الحياة.

ومغشوش واهم ذاك الذي يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية .

وانما السعادة في رضى الله .

وانما اللذة لذة البذل والفداء .

ونداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر القرون :

(انتم غفل عما القوم فيه ، تواصلون العَناء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم . ترضون ازواجكم بسخط ربكم عز وجل . كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم واولادهم على رضا الحق عز وجل) .

وما بغير البذل ينطق قاموسنا ، (لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة ، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح ، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فمن لم تكن عنده لذة الا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد . ولكن اين هذه اللذة من اللذة بأمر اذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والاخوان والمساكن ، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق ، وهو متحل

بهذا منشرح الصدر به ، يطيب له هجر ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول : فزت ورب الكعبة . ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول : انها لحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ، ثم يتقدم الى الموت فرحاً مسروراً) [1] .

هذا ما نعرفه من شأن الداعية . لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل الى مثل حال ابراهيم عليه السلام ، لما استسلم واطاع ووضع السكين على حلق ابنه ..

وبهذا وصفه اقبال ....

ليس يدنو الخوف منـه ابــــداً
ليس غير الله يخـشى احــــــداً
لحنــه فــي القلب نــاراً اشعــلا
من قيود الـزوج والولــد خـــلا
معــرض عما سوى الله الاحــــد
يضع السكيــن في حلق الولـد [2]

إن واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الاسلامية وارجاع الاسلام الى الهيمنة من بعد الحدث الهائل في تنحيته هي واجبات واضحة بينة ، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين أصحاب الأماني المتأوهين (يكون عالماً بها ، ولا تنهض همته اليها ، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً ،

---

(١) مفتاح دار السعادة ٣٥/١ .
(٢) ديوان الأسرار والرموز/٣٩ .

وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً ، قد أسام نفسه مع الانعام ، راعياً مع الهمل ،واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمر اليه ، وبورك له في تفرده في طريق طلبه ، فلزمه واستقام عليه ، قد ابت غلبات شوقه الا الهجرة الى الله ورسوله ، ومقتتت نفسه الرفقاء الا ابن سبيل يرافقه في سبيله .)[1] .

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقه .

وكذلك حقاً تفعل الأشواق حين تصدق .

ان صاحبها حينئذ يأبى الا الهجرة والانضمام الى القافلة .

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له ايثار السلامة ، الا داعية يبثه همه ، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد ، ويعلمه علم البذل وفقه الدعوة والتبشير .

فحيهلا ان كنــت ذا همــة فقـــد
حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
ولا تنتظر بالسير رفقـــة قاعـــد
ودعه ، فإن العزم يكفيك حامـــلا

فينتفض ، ويهجر كل قاعد ، ويهاجر مع المهاجرين الى

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٦ .

الله ... ويخطب به ابن تيمية فيقول ، ويصف له الطريق واضحاً :

(الحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب .) [1] .

فيطرح اغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً . ويعود يأبى المنخفض الخبت ، ويرفض أن تواريه الوديان ، ويبتغي المرتفع العالي .

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو : الجهاد ، وفقه الدعوة .

قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » .

(وقد اخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . احدها : هذا . والثاني قوله : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، اولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . » والثالث قوله تعالى : « ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فاؤلئك لهم الدرجات العلى » . والرابع قوله تعالى : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة» .

فهذه أربعة مواضع ، في ثلاثة منها : الرفعة بالدرجات

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٨٦ .

لأهل الايمان ، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح .
والرابع : الرفعة بالجهاد ، فعادت رفعة الدرجات كلها الى العلم والجهاد) [1] .

ولا تصل الى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة ، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول ، فمن امتلكها لان له كل صعب ، واستطاع أن يعيد هذه الأمة الى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان ، كما قال اقبال :

همم الأحرار تحيي الرمما
نفخة الأبرار تحيي الامما

وبالمقابل جعل رحمه الله :

كل داء في سقوط الهمم

وكذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم ، لا يفرجه ويوسعه إلا اصحاب الهمم العالية فحسب .

ولذلك كان من تعاليم الامام حسن البنا :
(أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة ، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد) . (وأن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر) [2] .

وانه لمعنى يفقهه من ذاق العلو ، محجوب عمن يطلب السلامة .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٥٠ .
(٢) رسالة التعاليم ، المجموعة/٢٤ .

قلت للصقر وهــو فــي الجو عال :
أهبط الأرض فالهـــواء جديـب
قال لـي الصقر : فـي جناحي وعزمي
وعنان السماء مرعـــى خصيب [1]

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون .. !

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ؟ ؟

(انها ثِقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض . ثِقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . ثقلة اللحم والدم والتراب . والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس الفاظه : اثاقلتم ـ وهذه قراءة حفص ، وهي ابلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها : تثاقلتم ـ وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ، ويلقيها بمعنى الفاظه « اثاقلتم الى الأرض » ومالها من جاذبية تشد الى أسفل وتقاوم رفزفة الارواح وانطلاق الأشواق .

ان النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في

---

(١) لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني /٣٥ .

الإنسان وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع الى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود :

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » .. وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله الا وفي هذه العقيدة دخل ، وفي ايمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول ﷺ : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق » . فالنفاق ـ وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله ، « وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » .

ومن ثم يتوجه الخطاب اليهم بالتهديد :

« الا تنفروا يعذ بكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير » .

والخطاب لقوم معينين في موقف معين ، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله . والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو عذاب الدنيا . عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال اضعاف ما

يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذبح الذل اضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء) [1] .

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة ، فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ انها خشنة ، فقال :

(من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد امتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية ، جاهدون في سبيلها ليل نهار ، ولا يقبلون في السوق الا على من يساومهم باثمان مرتفعة ، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة الى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم ، بل ولا بمجرد امكانيات منافعهم . فإذا كنتم ترجون ، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية ، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة ، فما ذلك الا حماقة) [2] .

وبعـــد ...

فإنا لا زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام ، وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله أن (الكلام الحسن حسن ، واحسن من الكلام : معناه ، واحسن من معناه : استعماله) ... فقم الى استعماله يرحمك الله :

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٣/١٠ .
(٢) تذكرة دعاة الاسلام /٥٦ .

وخل الهوينـــا للضعيف ولا تكـــن

نؤوما فان الحزم ليس بنائـــــــم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر :

قد نهضنا للمعالي ومضى عنا الجمود
ورسمناها خطى للعز والنصر تقود
فتقدم يا أخا الاسلام قد سار الجنود
ومضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود[1]

وكأنك قد أصغيت ، واستدركت قعودك ، وعفت مساعيك لاحراز الترقيات الدنيوية جانباً ، وآمنت بانها آتية اليك دونما جهد وحرص .

ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة ، وبدأت تنشدهم مبايعاً :

مهما عتـا الأقزام والاعبـد
ولوحوا بالقيـد أو هـددوا
عن نصرة الاسلام هـل أقعد ؟
لا ، سوف أبقى دائماً أنشـد
بفجره لا بـد يأتي الغـد[2]

(١) (٢) لوليد في اغاني المعركة /١٠٦/٧٦ .

إن مسلماً نودي بالسير مع الهمم العالية ، فانتفض ، وأفلت من قيود الأرض ، وحلق بجناح العزة : هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوة تميز واضحة .

أو كما قال سيد رحمه الله : ان (أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً ، الى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى)[١] .

وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم ، ينفصل فيها التحديد الاسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج ، وهي : معنى الوطن ، ومعنى الحاكم ، ومعنى الدستور ، عن الاطلاقات الجاهلية في تفسيرها ، وعما بعد الاطلاق من اختلاف اجتهادات العقول .

---

(١) في ظلال القرآن ٢١/٤ .

فالأمة الاسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها ، وجعل :
(الجنسية فيها هي العقيدة .
والوطن فيها هو دار الاسلام .
والحاكم فيها هو الله .
والدستور فيها هو القرآن .

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة الى الله ، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوضار التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية . الشرك بالأرض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة) [1]

وحملة الاسلام انما ينطلقون بهذا المفهوم الاسلامي الواضح ، ويعلنوه ، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية ، ولا مهادنة ، ولا محاولة استرضاء . وإنه لأمر جازم من الله لهم أن :

« ادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

(ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه . ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب .

---

(١) معالم في الطريق /١٤٦ .

فليمض المؤمنون في وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصفون له قلوبهم . ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا ، وما هم يوماً براضين !) [1] .

فما دامت هذه النتيجة حتمية ، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين ، فليسلك الدعاة اذن ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر ورفضه الايمان .

ولن يكون هذا الرد غير التميز ، والانفصال عنه .

طالما أنه ليس هناك لقاء ، فإن المنطق يقتضي الانفصال اذن ، كما فاصَلَ النبي ﷺ كفار قريش في العهد المكي ، وكما فاصل كل القبائل بعد الهجرة .

ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ اليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية ، وانما كانت حقيقة ايمانية ودلالة نعمة ربانية ، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون . وتلمس هذا في أن رسول الله ﷺ كان يذكرهم بها ، ويتخذها عاملاً تربوياً للذين معه ، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة العشاء قريباً من نصف الليل :

(أبشروا . ان من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم .) [2] ، وذلك (قبل أن يفشو

---

(١) في ظلال القرآن ٢٤/٦٠ .

(٢) صحيح مسلم ٢/١١٧ .

الاسلام في الناس .) [1] ، كما يقول الراوي .

إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية ، وكذلك تربّى نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء ، وتوكيد الحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها ، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة ، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف ، الكثيرة القبائل .

والمس عظم أثر هذه التربية ، وتحولها اصرار وثباتاً في الدين ، وتجديد عزم على المضي ، حين يقول من سمع هذه البشرى : (فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله ﷺ) .

فتصور هذه الدويرة الاسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة .

كانت هناك طليعة اسلامية (تزاول نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة) [2] . وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي ، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة . وما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لو لم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولياتها ومقدماتها ، فيومها :

---

(١) صحيح مسلم ٢/١١٥ .

(٢) معالم في الطريق /٩ .

(في مكة ، لم تكن للاسلام شريعة ولا دولة ، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين)[1] ، كان (**الاسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الاسلام في عالم الواقع**)[2] .

فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة ، صار المجتمع الاسلامي مناراً واضحاً في تلك الصحراء ، يأوي اليه الهائم والمتشكك ، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث .

فلما اتسع المجتمع الاسلامي ، وانتصر ، ودانت كل الجزيرة بدين الله : استمرت هذه الحاجة الى مفاصلة بقايا الجاهلية ، المتمثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات .

وهي مفاصلة ثانية ، واجبة أيضاً . فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في ايجاد عزة الايمان في نفوس المفاصلين ، وفي جعل المدينة مناراً يأوي إليه الحائر ، فإن المفاصلة الثانية

---

(١) (٢) في ظلال القرآن ٢٨٠/٩ .

كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الاسلام ، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحه .

ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة ، فقال :

(إن لله عبادا يميتون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره) [1] .

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعنيها .

وهذا يعني أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع ، زادت هذه الحاجة الى هذا النوع الثاني من المفاصلة ، بعملية طردية ، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه باصبع الاتهام ، ولئلا يحيله التقادم الى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون ، فينطلي زوره ، وينسى الناس اعوجاجه ، ولئلا تستسيغه النفوس من بعد ، حين يطول الأمد .

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لا بد لها ازاء زيادة النفاق والفسق واتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة ، ومن هذا التميز ، بشكل واضح صريح ، لتبقى الصورة الاسلامية جلية واضحة بدورها ، يمكن أن ينظر اليها من يبتغي النظر اليها ، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة ، والتفتيش عنها ، وتلمّس مثل تطبيقي لها .

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف/١٣ .

والحقيقة أنه وان افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم اسلامي يصلح مثلا لتطبيق الاسلام ، الا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بضع اشخاص من الدعاة ، تتضح فيهم معاني الاسلام ، ويكتسبون من هيبته ، ويبلغون الذروة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة .

وهذا هو معنى (القدوة) في صورتها البسيطة .

ان وجود (القدوة الاسلامية) يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته وعقيدته ، وسكناته وحركاته ،عما حوله وعمن حوله ، منفصل عنهم ، تميزه الأبصار قبل المعاملة ، بما تعلو وجهه من معالم السكينـة والهيبة والحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره ، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الاسلامي المفتقد ، ويكون بديلاً لها ، وبرهاناً على أن الاسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الانسانية الرفيعة ، أو بالأحرى : يكون برهانا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الاسلام .

وأبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الاسلامية بعبارة (الحرية عما سوى الله) ، أي ليس بينه وبين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل ورغبة ، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر ، فيقول :

(لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً) [١] .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٩٨/١٠ .

ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه (عبودية الاحرار) أو (حرية العبيد) ، فيصوغ سطراً بليغاً رفيعاً يغني عن عشر مجلدات ، ويقول :

(انك لا تصل الى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية) .

فلأن الاسلام كله عبودية لله تعالى ، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة

وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن افضل الزهاد العباد : الفضيل بن عياض رحمه الله ، اذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله : واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي ، أو بالقسر والاكراه ، فيقول الفضيل :

(والله ، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية) . [1]

فالمسلم يفرد الله بالعبادة ، وإفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير ، ومما يشرعون لأنفسهم ، ويجهر بذلك مفاصلا ، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله :

« إني أُشهد الله ، وأشهدوا : أني بريء مما تشركون من

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٩٩/١٠

دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون . اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ » .

(انها انتفاضة التبرؤ من القوم ـ وقد كان منهم وكان أخاهم ـ وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة ، وقد انبتّت بينهما وشيجة العقيدة .

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوهم ، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم .

وذلك كله مع عزة الايمان واستعلائه ، ومع ثقة الايمان واطمئنانه !

وإن الانسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ، ويروا في الدعوة الى الله الواحد هذيانا من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ، ثم يهيج صراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد

استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم .

إن الانسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد ، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب .

إنه الإيمان ، والثقة ، والاطمئنان . الايمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان الى نصره . الايمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ، لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، انما هي حاضر تتملاه العين والقلب) .[1]

« ان ربي على صراط مستقيم » .

(فهي القوة والاستقامة والتصميم .

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . انها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه . انه يجد هذه الحقيقة واضحة . ان ربه ورب الخلائق قوي قاهر : « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » ، وهؤلاء الغلاظ الاشداء من قومه ان هم الا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً ، فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها ، وهي لا تسلط عليه ـ ان سلطت ـ الا باذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟

---

(١) في ظلال القرآن ١٢/٩٧ ، ٩٨ .

ان هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه ، لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه .

انها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدا) [1]

وقد فقه الامام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة ، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها ، واوضح أن مستقبل الاسلام انما يعتمد على (هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجدوا في تكوينه ، وعلموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل واملأوا روحه الوثابة بجلال الاسلام وروعة القرآن ، وجندوه تحت لواء محمد ورايته ، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره) [2] .

فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال ، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر .

فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير ، والعزة ، والاستعلاء .

واستقلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب .

---

(١) في ظلال القرآن ١٢/٩٧ ، ٩٨ .

(٢) تحت راية القرآن ، المجموعة / ٣١٩ ، ٣٢١ .

واستقلال العمل هو التميز في الصف ، وترك الأحلاف.

وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشئ ، فانها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم ، والثبات على هذه المفاصلة .

أوكما قال الامام :

(لا تصغروا في أنفسكم ، فتقيسوا أنفسكم بغيركم ، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ، ومنهاجها من من سنة رسوله ، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات ، وتذهب بها الحوادث والأيام) [١] .

ومن مكملات ذلك وضرورياته حفظ صفاء الابتداء ونقاوته ، وكما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة ، ويسيرهم مع الهمم العالية ، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء ، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة .

ان من يفتح عينه على المفاهيم الاسلامية النقية المستمدة من القرآن والسنة فحسب غير المشوبة بترهات غير اسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب ويشيب ويموت على هذه المفاهيم ، ومن سقي المخاليط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد .

ولقد وعى أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر آباذي

---

(١) تحت راية القرآن ، المجموعة /٣١٩ ، ٣٢١ .

المتوفى سنة ٣٦٧ هـ هذا المعنى أروع الوعي ، فقال :

(ما ضل أحد في هذا الطريق الا بفساد الابتداء ، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء) .

فأحسن البداية وأتقنها يا داعية الاسلام .

ما كان لأهل الحركة الاسلامية ومن حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصَب ، ولا غبار في سبيل الله ، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ، ولا ينالون من ملحد نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع اجر المحسنين .

ولا ينفقون نفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة ، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعاً الا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون .

وكيف يلتذ داعية براحة وهم قد لقّنوه من أول يوم أن ينشد :

في ضميري دائماً صوت النبـــي
آمراً : جاهـــد ، وكابـــد ، واتعبِ
صائحاً : غالب ، وطالــب ، وادأب
صارخاً : كـــن أبـــداً حـــراً أبي .

وكيف يميل الى استرخاء ، واصحابه يهتفون :

نَبْنِـــي ، ولا نتكـــل
نفنـــى ، ولا ننخـــذل
لنا يـــد ، والعمـــل
لنـــا غـــد ، والأمل ؟

إن حرية الداعية ، والامل الذي يستيقنه : يدفعان به دفعاً الى البذل السخي .

● **علو في الحياة ...**

حريـــة ... وأمـــل
حرية تكسر قيود الشهوات .
وأمل بالأجر ، وثقة بالنصر .

كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي ، كانتا دوماً في تاريخ التوحيد الطويل ، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين ، والصديقين ، والراشدين ، والتابعين ، ومن لحقهم باحسان على مر القرون ، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون ، يأبون الا العلو في الحياة ، ونحن ان شاء الله بهم لمقتدون .

كان تعبهم يتمثل أحياناً بحركة يومية دائبة في الانذار والتبشير ، والتجميع والتبصير ، أو سهراً على رعاية مصالح المسلمين .

ويتمثل احياناً في انكباب على التعلم واجتياز المفاوز لحيازة حديث أو كلمات فقه .

ويتجسد في اخرى قتالاً، وتحفزاً دائماً لجهاد وعلو موت .

وفي أخرى اشغالاًللفكر في التخطيط .

فإن أخذوا راحة ، واستلقوا على ظهورهم : لبث ذهنهم يصطاد الخاطر .

وكل ذلك حكى التاريخ ، ليتعلم الدعاة اليوم .

● نطق بالليل والنهار

فأول من يطالعنا : الأنبياء عليهم السلام . كان لسانهم ناطقاً بالليل والنهار ، والاعلان والاسرار .

قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام :

« قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً »

ثم قال :

« ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم اني اعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً » .

● ونطق اثناء خطوات الهجرة

(والواقع أن الداعي اذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر الا فيها ولا يتحرك الا من اجلها ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل ابداً حتى في أحرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف ، وهكذا كان رسولنا محمد ﷺ ، فعندما هاجر الى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الاسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة ، فدعاهم الى الاسلام فأسلموا . وهذا يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة الى الله حتى وهو في طريقه مهاجراً الى المدينة والقوم يطلبونه)[1] .

● ونطق في السجن

(ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغله السجن وضيقه عن واجب الدعوة الى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به :

« يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ »)[2] .

---

(١) اصول الدعوة /٢٨٤ .

(٢) اصول الدعوة /٢٨٤ .

● الرشد يمنع النوم

وقاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته .

(والله ما نمت فحلمت ، ولا توهمت فسهوت ، واني لعلى السبيل ما زغت) [1] .

يعني أنه قد شغلته حروب الردة والفتوح وأرهقه ارساء جهاز الدولة ، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن أن يحلم ، وظل يزاد بعد النبي ﷺ في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة اثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو .

● الترابي .... !

ويترجم عبد الله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث ، حتى أن الريح لتسفي عليه التراب ، يرجو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة ، ويجتاز الصراط بلا حساب .

واسمعه يروي ما كان منه ويقول :

(أقبلت اسأل اصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفي الريح عليّ التراب ، فيخرج فيقول لي : يا بن عم رسول الله ما جاء بك ؟ الا ارسلت الي

---

(١) الخراج لأبي يوسف /١١ .

فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا احق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث) [1] .

ولو شاء أن يوقظوه لايقظوه له مع الفرح ، ولكن الهمم العالية تطرب لصفير الريح ولفحات التراب .

● هواية رفع الأثقال

والداعية اللبيب يسابق اصحابه لحمل كل ثقيل من الأمور ، فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل ، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية .

قال أحد الصحابة منهم :

(اتينا القادسية ، فقتل منا كثير ، ومن سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال :
أن النخَع ولوا عِظَم الأمر وحدهم) [2] .

وما كان أحد ممن حضر القادسية الا وابلى ، ولكن الدعاة الى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال .

● حصن التربية الأسدية

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل ابو وائل شقيق بن سلمة الأسدي ، نتاج تربية الأربعة الراشدين وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ، فانه عاف التجارات والبيوت وبنى له في الكوفة حصناً صغيراً يسعه هو

(١) طبقات ابن سعد ٣٦٨/٢ .
(٢) الاصابة ٢٨/١ .

وفرسه وسلاحه فقط ، وبقي طول عمره متحفزاً للجهاد ، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس [1] .

تجرد حق التجرد ، فأنتج حق الانتاج ذرية تجرد تتبعه ، يعلم الدعاة بذلك طريق انتاج الرجال باستخدام وسائل الايضاح البصرية المجسدة .

انتج أبو وائل أمثال : سليمان الأعمش ، ومنصور بن المعتمر ، وحصين بن عبد الرحمن ، وعمرو بن مرة ، وغيرهم من فحول المحدثين .

إن من لا يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف والرياء ، وما هو كذلك .

● ذهب الفراغ ... !

ويموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول ، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز الى ضرب الأمثال .

تصفه زوجه فاطمة بنت عبد الملك فتقول :

(كان قد فرّغ للمسلمين نفسَه ، ولامورهم ذهنه ، فكان اذا امسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه : وصل يومه بليلته) [2] .

يضرب المثل بذلك لداعية الاسلام ان اراد أن يصدق

---

(١) كتاب الثقات لابن حبان /١٠٨ .

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم /١٤٦ .

دعوته ويؤدي الأمانة .

صدق الداعية أن يجدد اطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين ، فلا تجد له حركة دنيوية الا بمقدار ما توجبه ضروريات اطعام عياله . ويفرغ ذهنه ، فليس فيه الا تفكر بمصالح الدعوة .

ويعترض اصدقاءٌ قدماء لعمر ، من اصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغاً ، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات ، فيقولون :

(لو تفرغت لنا)

فيقول :

(واين الفراغ ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ الا عند الله) [1] .

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده اذا دعاهم رفاق الأمس الى قتل الأوقات .

● موفق يجوب بحقيبة العلم راجلا

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل ، واتباع مذهبه من بعده ، يضعون وسائل الايضاح البصرية في الاستخدام التربوي ، فانهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل :

(غلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل) [2]

فمن تلامذته : الحافظ الإمام الفقيه الزاهد المحدث :

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٩٧/٥ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١٥٢/١ .

اسحق بن منصور المعروف بالكوسج ، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما . كان يسكن نيسابور بخراسان ، فرحل الى بغداد ودوّن عن احمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة ، ورجع الى نيسابور ، ثم انه :

(بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل ، فحملها في جراب على كتفه ، وسافر راجلاً الى احمد ، ثم عرض خطوط احمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقرّ له بها وأعجب به) [1] .

واحدنا الآن يجلس على أريكته وبجنبه مسند أحمد مطبوعاً محققاً مجلداً مذهباً ، يتكاسل أن ينظر فيه .

● **الحنابلة يحفظون السمت**

ويرسم ابن عقيل ، النحوي الفقيه الحنبلي ، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره ـ بل أحلامه إذ ينام ـ الا في الدعوة ، ويجلي ذلك بقوله :

(اني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى اذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة : اعملت فكري في حال راحتي وانا مستطرح) [2] .

فانظر ، كم ساعة من نهارك وليلك تضيع سدى ؟

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٥٢٤ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٤٦ ، ٢/٣٦١ .

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي .

قالوا :

(لازم العبادة ، والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير .. صَلْبٌ في الدين ، وينصح الإخوان ، واذا رآه انسان : عرف الجد في وجهه) [1] .

وهكذا يجب أن تكون دائماً علامة الدعاة سيماهم في الجد ظاهرة في وجوهم ، لا يخطؤها النظر .

ليس لهم نصيب من الهزل والضحك والبطالة .

● اصحاب الامام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة ، ليبرهنوا أن الاسلام الذي انتج اولئك لا يزال حياً .

يصف الإمام حسن البنا اصحابه فيقول :

(قد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم والخليون هجع ، وأكبّ أحدهم على مكتبه من العصر الى منتصف الليل ، عاملا مجتهداً ، ومفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره ، حتى اذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً لجماعته ، ونفقته : نفقة لدعوته ، وماله : خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته :

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٤٦ ، ٢/٣٦١ .

« لا أسألكم عليه اجراً ، ان اجري الا على الله . ») [1] .

● **وعلو في الممات .. !**

وكما في مصر ، كان من رعيل العراق الأول : ابو صفوان الدباغ صاحب رسالة (مع الناشئة) ، الرسالة الصغيرة البسيطة جداً ، الطريفة جداً .

حدثني الثقة من أقرانه ، قال :

(كان مريضاً بالسرطان ، واشتدّ مرضه سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة والف ، فرقد في المستشفى اياماً ، وكأنه أحسّ بلحظات حياته الأخيرة ، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك ، فجاءه ومعه بعض الدعاة ، فيهم راوي القصة فاعلمهم بقرب موته ، وشهد أن لا إله الا الله ، وقرأ شيئاً من القرآن ، وصافح يد القائد ، وأعلن تجديد بيعته وثباته على هذه الدعوة وحمّلهم السلام الى من كان من الدعاة آنذاك والى من سيلتحق بعد ، ثم أعاد الشهادة ، ومات من فوره ، بعد تجديد بيعته بقليل) .

رحمه الله .

فتأمل .

هذه منقبة لا يرزقها الا من كان توجهه صادقاً في حياته .

وتأمل علو همته . كأنه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار .

---

(١) إلى أي شيء ندعو الناس ، المجموعة/١٢٩ .

أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد ،يحييك ويبلغك السلام ، ويطلب منك الثبات على هذه الدعوة التي جربها في صحته ونشاطه ، وجربها في آخر لحظات حياته فوجد لذة السير الى من انعم بها على عباده .

ان في ذلك لعبرة تغني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق والبلاغة المتكلفة .

حقاً ان الهمم مراتب ، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها الا اذا علت في بدايتها .

وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر ، والهُمام من يقول : اللهم اجمعنا واياهم في دار كرامتك .

وكذلك نقصص القصص لدعاة الاسلام لعلهم يقتدون .

وانتظر « البوارق »

الذي سيكون إن شاء الله مدونة للحماسة شاملة ، مبيناً معاني الجهاد ، كمنهج للدعوة وواجب على الداعية ، وارتباطه بالفقه ، مع استعراض قصص من بطولات العلماء والدعاة ، وفصول في الحث على البذل والتضحية ، والترغيب في التشمير للخير ، وإتعاب الأبدان وإنفاق الأوقات في تجميع الشباب .

وتوجيههم للنهي عن المنكر ومقارعة الظالمين .

الفهرس